من بلاغة الإعجاز القرآني في التعبير بمادتي الفيض والغيض في آيات الذكر الحكيم

دكتور

أحمد محمد محمد عبد الفتاح

مدرس البلاغة والنقد في كلية اللغة العربية

فرع جامعة الأزهر بالزقازيق

الملخص

يتناول هذا البحث بالدراسة والتحليل مادتي: (الفيض والغيض) في آيات الذكر الحكيم؛ لمعرفة بعض الأسرار البلاغية لهاتين اللفظتين في القرآن الكريم، منطلقًا من أن للفظة في القرآن الكريم خصوصية بحيث تأتي مستقرة في موضعها، ولا يمكن لغيرها أن تحل محلها؛ فكل لفظة في القرآن الكريم لها معنى يميِّزها عن غيرها؛ لأن لكل واحدة منها دلالتها الدقيقة الخاصة بها، وإيحاءها المستقل، الذي لا يمكن أن يتحقق باستعمال لفظة مرادفة لها، ومن ثَمّ فيجب التعرف على خصوصية الكلمة في سياقها، وسر اختيارها في موضعها الذي وردت فيه، وكيف تعاونت مع أخواتها حتى انجلى المعنى وارتقى البيان؛ للوقوف على عمق مقاصدها وآثارها، ولطائف عجائبها وأسرارها، وما تختزنه من طاقة بيانية وتعبيرية لها دلالتها وفصاحتها الخاصة، فكانت بذلك وجهًا من وجوه الإعجاز القرآني، وسرًا من أسرار عجائبه الدقيقة التي لا تنتهي.

الكلمات المفتاحية: إعجاز، قرآني، تعبير، الفيض، الغيض.

أحمد عبد الفتاح

قسم البلاغة والنقد، كلية اللغة العربية

بالزقازيق، جامعة الأزهر، جمهورية مصر العربية

am2006246@gmail.com

Abstract:

This research deals with study and analysis the two subjects: (Al-Fayd and Al-Ghaid) in the verses of the Holy Qur'an; To know some of the rhetorical secrets of these two words in the Noble Qur'an, based on the fact that the word in the Noble Qur'an has a specificity so that it comes stable in its place, and no other can replace it; Every word in the Noble Qur'an has a meaning that distinguishes it from others. Because each of them has its own precise significance, and its independent revelation, which cannot be achieved by using a word synonymous with it. Hence, the specificity of the word must be known in its context, the secret of choosing it in its place in which it was mentioned, and how it cooperated with its sisters until the meaning became clear and the statement was elevated; In order to find out the depth of its purposes and effects, the subtleties of its wonders and secrets, and what it stores of graphic and expressive energy that has its own significance and eloquence.

Keywords: miracles, Qur'anic, expression,al-fayd, al-ghaid.

Ahmed Abdel Fattah

Department of Rhetoric and Criticism,
Faculty of Arabic Language in Zagazig,
Al-Azhar University, Egypt

am2006246@gmail.com

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي أنزل القرآن معجزًا في لفظه ومعناه، والصلاة والسلام على أشرف خلق الله سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد:

فالقرآن الكريم هو كتاب الله الخالد الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد.

وقد تعددت البحوث القرآنية، وامتلأت المكتبات الإسلامية بالروائع الإيمانية التي توضح عظمة القرآن الكريم، وتجلي معانيه، وعجائب القرآن لا تنتهي إلى قيام الساعة، فسبحان من هذا كلامه.

ولما كنت من الراغبين في نيل شرف المشاركة في هذا الميدان وقع اختياري على مفردتين من مفردات القرآن الكريم من خلال النظم القرآني لهما، وهاتان المفردتان هما: (الفيض والغيض)، ومن ثمّ جاء عنوان البحث: (من بلاغة الإعجاز القرآني في التعبير بمادتي: الفيض، والغيض في آيات الذكر الحكيم).

وتهدف هذه الدراسة إلى التأكيد على احتلال المفردات القرآنية مواضعها في السياق الذي وردت فيه؛ حيث لا يمكن أن تصلح مكانها لفظة أخرى، وذلك أمر ينبغي التسليم به قبل أي دراسة للأسلوب القرآني، قال تعالى: ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود:١] فهو كلام الله وليس كلام بشر.

فكل لفظة في القرآن الكريم لها معنى يميِّزها عن غيرها، ولا يمكن أن تحل مكانها لفظةٌ أخرى في سياقها؛ لأن لكل واحدة منها دلالتها الدقيقة الخاصة بها، وإيحاءها المستقل، الذي لا يمكن أن يتحقق باستعمال لفظة مرادفة لها، وسوف أحاول بمشيئة الله –تعالى– أن أقف على خصوصية الكلمة في سياقها، وسر اختيارها في موضعها الذي وردت فيه، وكيف تعاونت مع أخواتها حتى انجلى المعنى وارتقى البيان؛ للوقوف على عمق مقاصدها وآثارها، ولطائف عجائبها وأسرارها، وما تختزنه من طاقة بيانية وتعبيرية لها دلالتها وفصاحتها الخاصة، فكانت بذلك وجهًا من وجوه الإعجاز القرآني، وسرًا من أسرار عجائبه الدقيقة التي لا تنتهي.

وقد دفعني إلى اختيار هذا الموضوع –بالإضافة إلى ما سبق– عدة أسباب، من أهمها:

١– إلقاء الضوء على صورة من صور الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم، من خلال موضوع البحث القائم على دراسة بلاغة الإعجاز القرآني في التعبير بمادتي: "الفيض، والغيض" في آيات الذكر الحكيم.

٢– الكشف عن السر البلاغي في استعمال هاتين اللفظتين دون غيرهما في السياق الذي وردا فيه، وبيان وظيفة السياق في تحديد المعنى الذي يمكن أن يتغير لو ورد في سياق آخر.

٣– إيضاح الفروق الدقيقة في استعمال المادة اللغوية في سياق، واستعمالها في سياق آخر، ولمعنى آخر غير الأول.

وقد قسمت البحث إلى مقدمة، وتمهيد، ومبحثين، وخاتمة، وفهرس للمصادر والمراجع، وآخر للموضوعات.

تكلمت في المقدمة عن عظمة القرآن، ومكانته، وأهمية الموضوع، وأهدافه، ومنهج البحث.

واشتمل التمهيد على ذكر الآيات التي جاءت فيها مادتا: (الفيض، والغيض) وألقيت الضوء على معنى كل منهما.

وجاء المبحث الأول بعنوان: من بلاغة الإعجاز القرآني في التعبير بمادة: (فيض) ثم جاء المبحث الثاني بعنوان: من بلاغة الإعجاز القرآني في التعبير بمادة: (غيض).

وأما عن الخاتمة فقد كتبت فيها أهم نتائج البحث.

وسرت على المنهج التحليلي الذي من خلاله ندرك المعاني التي تبوح بها مادتا: (الفيض، والغيض) في آيات الذكر الحكيم؛ وذلك من خلال النظر إلى كل كلمة في موقعها غير مفصولة عما قبلها وما بعدها من النظم القرآني، فلا أكتفي بالحديث عن مادة الفيض أو الغيض في الآية بل أتحدث عما يعين على فهم معناها من الآية، ومن ثَمّ يبرز سر اختيار الكلمة بذاتها دون غيرها، وعلاقتها بالسياق والمقام الذي وردت فيه.

هذا هو عملي، وهو جهد المقل؛ فإن كنت قد وفقت فمن الله، وإن كانت الأخرى فأسأل الله المغفرة والرحمة في الدنيا والآخرة؛ إنه ولي ذلك والقادر عليه، والله من وراء القصد، وهو الهادي إلى سواء السبيل.

التمهيد

ذكر الحق سبحانه مادتي: (الفيض، والغيض) في مواضع محددة في آيات الذكر الحكيم؛ فقد وردت مادة (فيض) ثماني مرات، وجاءت فعلًا في جميع المواضع؛ حيث وردت فعلًا ماضيًا في ثلاثة مواضع، ووردت فعلًا أمرًا في موضعين، ووردت فعلًا مضارعًا في أربعة مواضع، وبيانها كما يأتي:

الآيتان: الأولى، والثانية في سورة البقرة، قال تعالى:

﴿**لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ (١٩٨) ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ**﴾ [البقرة: ١٩٨، ١٩٩].

الآية الثالثة في سورة المائدة، قال تعالى:

﴿**وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ**﴾ [المائدة: ٨٣].

الآية الرابعة في سورة الأعراف، قال تعالى:

﴿**وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ**﴾ [الأعراف: ٥٠].

الآية الخامسة في سورة التوبة، قال تعالى:

﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ﴾ [التوبة: ٩٢].

الآية السادسة في سورة يونس، قال تعالى:

﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [يونس: ٦١].

الآية السابعة في سورة النور، قال تعالى:

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٤].

الآية الثامنة في سورة الأحقاف، قال تعالى:

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَى بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الأحقاف: ٨].

هذا، ولكلمة (فيض) معان ودلالات كثيرة؛ فالفاء والياء والضاد أصل صحيح واحد يدل على جريان الشيء بسهولة، ثم يقاس عليه، يقال: فاض الماء والدمع ونحوهما، يفيض فيضًا وفُيُوضة وفُيُوضًا وفيضانًا وفَيْضوضة؛ أي كثر حتى سال على ضفة الوادي، وفاضتْ عينُه تفيض

فيضًا إذا سالت، ويقال: أفاضت العين الدمع تفضيه إفاضة، وأفاض فلان دمعه، وفاض الماء والمطر والخير إذا كثر(١).

وقال الراغب: فاض الماء إذا سال مُنْصبًّا، قال تعالى: ﴿تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ﴾ [المائدة: ٨٣] وأفاض إناءَهُ إذا مَلأَهُ حتى أسالهُ وأَفَضْتُه، ومنه فاض صدره بالسِّرِّ أي سال، ورجُلٌ فيّاضٌ أي سخيٌّ...وحديثٌ مستفيضٌ: مُنتشرٌ، يقال: إنه أعطاه غَيْضًا من فيضٍ أي: قليلًا من كثيرٍ(٢).

وفي أساس البلاغة: أرض ذات فُيوض: فيها مياه تفيض، وحوض فائض: يفيض من جوانبه لامتلائه، وفاض الخير: أي كثر، وأفاضوا من عرفات، وأفاضوا في الحديث: اندفعوا، واستفاض الخبر، وهذا حديث مستفيض، واستفاض المكان: اتسع وانتشر(٣).

وفاض الماءُ: سال في كثرة انصباب، وأَفاض الماءَ على نفسه: أَفرغه، والناسُ من عرفات: دَفَعُوا أَو رجعوا وتفرّقوا، والإِناءَ: ملأَه حتى فاض، وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ﴾ أَي: اندفعتم منها بكثرة

(١) ينظر: معجم مقاييس اللغة، لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، تحقيق وضبط/ عبد السلام محمد هارون، (دار الفكر، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م): فيض، وكتاب العين، لأبي عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي (١٠٠- ١٧٥هـ) تحقيق الدكتور/ مهدي المخزومي، والدكتور/ إبراهيم السامرائي (دار ومكتبة الهلال): ٧٦١، والقاموس المحيط، للفيروز ابادي (الهيئة العامة المصرية للكتاب، ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م): فيض. ولسان العرب للإمام العلامة ابن منظور (٦٣٠ – ٧١١هـ)، تحقيق/ ياسر سليمان أبو شادي، ومجدي فتحي السيد (دار التوفيقية للطباعة). (د. ط، ت): فيض.

(٢) المفردات في غريب القرآن، تأليف/ أبي القاسم الحسين بن محمد، المعروف بـ«الراغب الأصفهاني» (الناشر/ مكتبة نزار مصطفى الباز): فيض.

(٣) أساس البلاغة، للزمخشري، المتوفى: ٥٣٨هـ، تحقيق/ محمد باسل عيون السود (دار الكتب العلمية، ط الأولى، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨): ٤٤/٢.

كاندفاع السيل وفيضان الماءِ، ورجل فياض: أي سخي، ومنه استعير (فاضوا في الحديث) إذا خاضوا فيه، وحديث مستفيض: أي منتشر(١).

وفاض صدره بسرّه: لم يُطق كتمه فباح به، وفاض الخير وغيره: كثر، وغزر بشكل مفرط، وفاض الشر: زاد، وأفاضَ في الحديث: توسَّع فيه وأطنب، وأفاض القول ليؤكِّدَ فكرتَه، قال تعالى: "لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ" أي: أكثرتم اللَّغط والافتراء فيه، وأفاض الماء على جسده أفرغه وصبه عليه(٢).

هذا، وبناء على ما سبق، وبالنظر في الآيات التي وردت فيها مادة: (فيض) نجد أنها جاءت متضمنة خمسة معان:

١- الإفاضة في الحج(٣).

٢- إفاضة الدمع(٤).

٣- إفاضة الماء(٥).

٤- الإفاضة في العمل(٦).

---

(١) بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز في لطائف الكتاب العزيز، تأليف/ مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز ابادي المتوفي سنة ٨١٧هـ، تحقيق الأستاذ محمد علي النجار (المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، ط الثالثة، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م): ٤/ ٢٢٢. والكليات، معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، لأبي البقاء أيوب بن موسى الحُسيني الكفوي، أعده للطبع ووضع فهارسه د/ عدنان درويش، ومحمد المصري (مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط الثانية، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م): فيض.

(٢) معجم اللغة العربية المعاصرة، تأليف د/ أحمد مختار عمر (عالم الكتب، ط الأولى، ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م): فيض.

(٣) البقرة: ١٩٨، ١٩٩.

(٤) المائدة: ٨٣، التوبة: ٩٢.

(٥) الأعراف: ٥٠.

(٦) يونس: ٦١.

٥-الإفاضة في الحديث[١].

وقد ورد ذكر مادة (غيض) في آيتين من آيات الذكر الحكيم، قال تعالى في سورة هود:

﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [هود: ٤٤].

الآية الثانية في سورة الرعد، قال تعالى:

﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرعد: ٨].

جاء في لسان العرب: غاض الماء يغيض غيضًا ومغيضًا: نقص أو غار فذهب، وغاضت البحيرة؛ أي: غار ماؤها وذهب، وأعطاه غيضًا من فيض، أي: قليلًا من كثير، فالغيض بالضاد من النقص[٢].

وغاض الشيء وغاضه غيره، نحو: نقص ونقصه غيره، والغَيْضَةُ: المكان الذي يقف فيه الماء فيبتلعه، وليلة غائضة، أي مظلمة، قال تعالى: "وَمَا تَغِيضُ الأَرْحَامُ" أَي: تفسده فتجعله كالماءِ الذي تبتلعه الأَرض[٣].

وغاض الماءُ: غاب في الأرض، قلّ وذهب في الأرض، نضب، نقص، (وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الأَمْرُ) اختفى، "اللهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى

(١) النور: ١٤، والأحقاف: ٨.

(٢) ينظر: لسان العرب: فيض، وما وقع في القرآن الكريم من الظاء، لسليمان بن أبي القاسم التميمي السرقوسي، تحقيق الدكتور/ علي حسين البواب (مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ١٤١٩هـ - ٢٠٠٠م): ١٤.

(٣) مفردات ألفاظ القرآن الكريم: غيض، وبصائر ذوى التمييز في لطائف الكتاب العزيز في لطائف الكتاب العزيز للفيروز آبادي: ٤/ ١٥٥.

وَمَا تَغِيضُ الأَرْحَامُ": ما تنقصه الأرحام من الدم أو من سقط الجنين قبل تمامه(١).

هذا، ومما سبق يتضح أن مادة غيض ذُكرت في سورة هود مع الماء، وفي سورة الرعد مع الأرحام.

(١) معجم اللغة العربية المعاصرة: غيض.

المبحث الأول
من بلاغة الإعجاز القرآني في التعبير بمادة: (فيض)

الإفاضة في الحج:

قال الله (عز وجل) في سياق بيان أحكام الحج وشعائره:﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ (١٩٨) ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٩٨، ١٩٩].

آثر النظم الجليل التعبير بالإفاضة دون الرجوع في قوله: "فإذا أفضتم من عرفات"؛ لأن الإفاضة تصف حركة الحجيج، التي تشبه فيضان الماء في الأنهار، فالإفاضة جعل الشيء فائضًا من فيض الماء[1]؛ أي: فإذا أفضتم جمعكم تشبيهًا لاندفاع جمعهم الكثير في رحيلهم لساعتهم بعد العصر دفعة بفيض الماء المنبعث في ابتدائه من عرفات، فالتعبير بالإفاضة عن الرجوع استعارة تبعية؛ فيها دلالة على سرعة الخروج من عرفات الذي يشبه فيضان الماء في الأنهار والسيول، وفيها تصوير لحركة الحجيج في صعودهم وهبوطهم، وكأن الناس أودية تندفع، فالماء إذا فاض فإنه يعلو ويسفل، فكذلك الحجيج، فتراهم يملؤون الوديان والشعاب ما بين صاعد ونازل، فقوله: "أفضتم" هو المناسب لتصوير هذا

(١) ينظر: المفردات في غريب القرآن: فيض، وتفسير البحر المحيط، لمحمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي (دار الكتب العلمية، لبنان، بيروت ، ط الأولى، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م): ٢/ ٩٢.

المشهد[١]، كما أنه يوحي بتشكيله الصوتي، وبِنيته الصرفية بفيض الأعداد، فهم كالفيضان في شدته وقوته وضخامته واندفاعه، وهذا حاصل بالفعل؛ فمن أدى هذه المناسك شهد لحظة الإفاضة من عرفات، فأينما توجه بصرك تجد الأرض تفيض فيضاناً بالناس، وتموج كموج البحر، فالتعبير بمادة (فيض) تدل على معنى الكثرة دون الشدة، وعلى أن السير يكون بسهولة ويسر دون تدافع؛ فهي من فاض الماء إذا كثر على ما يحويه فبرز منه وسال[٢]، ويُفهم من التعبير بهذه المادة الدلالة على انتشار الإسلام، ومن ثَمّ كثرة أعداد الحجيج إلى بيت الله، وفيه إشارة إلى ما أفاضه الله تعالى على عباده من البركات والحسنات وغفران الذنوب.

وفي التعبير بالإفاضة دلالة على أن الموقف في عرفات له مكث محدود الوقت يجتمع فيه الناس ثم يرحلون بأجمعهم كالماء الفائض؛ لأن الإفاضة تكون في وقت واحد بعد غروب الشمس، بخلاف الذهاب إلى عرفة فتتعدد أوقاته[٣].

وذكر (عرفات) باسمه في الآية الكريمة يشير إلى أن الوقوف بعرفة ركن الحج، وذكر الإفاضة من عرفات دون أن يذكر الأمر بها فيه إشارة إلى أن الوقوف بعرفات أمر مسلم به لا يمكن الحج إلا به، وقد دلّ عليه

(١) ينظر: تفسير القرآن الكريم، لفضيلة الشيخ العلامة/ محمد بن صالح العثيمين (دار ابن الجوزي، السعودية: ط الأولى، ١٤٢٣هـ): ٢/ ٤٢١.
(٢) ينظر: لسان العرب: فيض.
(٣) ينظر: التحرير والتنوير، المعروف: بتفسير ابن عاشور (مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، لبنان، ط الأولى، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م): ٢/ ٢٣٤.

حديث رسول الله –صلى الله عليه وسلم– (الحج عرفة)[1]، كما أن ذكر الإفاضة من عرفات يقتضي سبق الوقوف به، وفي ذكر (عرفات) دلالة على أن عرفات كلها موقف، ولا يقتصر الوقوف فيها على جبل الرحمة فقط[2].

وتناسب مع التعبير بالإفاضة التعبير بـ(إذا) في قوله: "وإذا أفضتم" التي تفيد وجوب التحقق والوقوع –غالبًا– وتكرار ذلك كلما توفرت أسبابه، وهذا يعني أنه كلما كانت إفاضة كان ثمة ذكر عند المشعر الحرام في مزدلفة.

وفي قوله: ﴿فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ﴾ إيجاز بليغ؛ فالجملة اشتملت على الوقوف بعرفات، وهو الركن الأعظم للحج، كما اشتملت على المبيت بمزدلفة (المشعر الحرام)، فإنها سدت مسد أن يقال: فإذا كان يوم التاسع من ذي الحجة فقفوا بعرفات، واذكروا الله كثيرًا، ثم أفيضوا إلى المزدلفة، فبيتوا فيها، واذكروا الله عند المشعر الحرام.

---

(1) سنن الترمذي، لمحمد بن عيسى بن سَوْرة بن موسى بن الضحاك، الترمذي، أبو عيسى (المتوفى: ٢٧٩هـ) تحقيق وتعليق/ محمد فؤاد عبد الباقي (مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، ط الثانية، ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م): باب ما جاء فيمن أدرك الإمام بجمع فقد أدرك الحج، رقم: ٨٨٩، الجزء: ٣/ ٢٢٨.

(2) ينظر: التحرر والتنوير: ٢/ ٢٣٥. وتفسير البيضاوي المسمى أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تأليف/ القاضي ناصر الدين أبي سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي ت: ٧٩١هـ، حققه وعلق عليه وخرج أحاديثه وضبط نصه/ محمد صبحي بن حسن حلاق، والدكتور/ محمود أحمد الأطرش (دار الرشيد، دمشق، ط الأولى، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م): ١/ ١٧٨.

ثم بين عز وجل أن الإفاضة تكون من عرفات: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٩٩].

فالمخاطب بهذه الآية قريش ومن تبعهم؛ حيث تركوا الوقوف بعرفات، ووقفوا بمزدلفة، فقد روي عن السيدة عائشة –رضي الله عنها– أنها قالت: "كان قريش ومن دان دينها يقفون بالمزدلفة، وكانوا يُسمون الحُمس، وكان سائر العرب يقفون بعرفة، فلما جاء الإسلام أمر الله –عز وجل– نبيه أن يأتي عرفات فيقف بها ثم يُفيض منها، فذلك قوله عز وجل: (ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ)"[(١)]، وقال ابن عطية في الوجيز: "وذلك أنهم كانوا يقولون: نحن قطين الله، فينبغي لنا أن نعظم الحرم، ولا نعظم شيئًا من الحل، فسنّوا شق الثياب في الطواف إلى غير ذلك، وكانوا مع معرفتهم وإقرارهم أن عرفة هي موقف إبراهيم لا يخرجون من الحرم ويقفون بجَمْع، ويفيضون منه، ويقف الناس بعرفة، فقيل لهم أن يفيضوا مع الجملة، و(ثم) ليست في هذه الآية للترتيب، إنما هي لعطف جملة كلام على جملة هي منها منقطعة"[(٢)].

فالمقصود بالإفاضة في الآيتين إفاضة واحدة؛ خوطب بالأولى عامة الناس، وبالثانية قريش، و(ثم) عاطفة لجملة كلام على جملة كلام آخر،

---

(١) صحيح مسلم، للإمام أبي الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري (٢٠٦ – ٢٦١هـ) (ألفا للنشر والتوزيع، ط الأولى، ٢٠١١م – ١٤٣٢هـ):باب الوقوف، وقوله تعالى (ثُمَّ أفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أفَاضَ النَّاسُ)، رقم: ١٥١، صـ ٣٠٨.

(٢) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لأبي محمد عبد الحق بن عطية الأندلسي المحاربي (ولد سنة ٤٨١ هـ وتوفي سنة ٥٤١هـ) تحقيق/ عبد السلام عبد الشافي محمد (دار الكتب العلمية، لبنان، ط الأولى،١٤١٣هـ ـ ١٩٩٣م): ١/ ٢٦١.

ويكشف الزمخشري عن سر العطف بحرف التراخي، فيقول: "فإن قلت: فكيف موقع ثم؟ قلت: نحو موقعها في قولك: أحسن إلى الناس ثم لا تحسن إلى غير كريم، تأتي بثم لتفاوت ما بين الإحسان إلى الكريم، والإحسان إلى غيره، وبُعد ما بينهما؛ فكذلك حين أمرهم بالذكر عند الإفاضة من عرفات قال: "ثم أفيضوا" لتفاوت ما بين الإفاضتين، وأن إحداهما صواب، والثانية خطأ"[1]؛ فالغرض من التعبير بحرف التراخي الدلالة على التفاوت بين المتعاطفين، "والحق أن الزمخشري لم يسلب ثم معناها من الترتيب، وإنما استعار دلالتها على الترتيب الوجودي للترتيب المعنوي"[2].

وزاد ابن المنير الأمر وضوحًا، فقال: "وقد اشتملت الآية على نكتتين: إحداهما: عطف الإفاضتين، إحداهما على الأخرى ومرجعهما واحد، وهو الإفاضة المأمور بها، فربما يتوهم متوهم أنه من باب عطف الشيء على نفسه، فيزال هذا الوهم بأن بينهما من التغاير ما بين العام والخاص، والمخبر عنه أولًا: الإفاضة من حيث هي غير مقيدة، والمأمور به ثانيًا: الإفاضة مخصوصة بمساواة الناس، والثانية: بعد وضوح استقامة العطف كونه وقع بحرف المهملة، وذلك يستدعي التراخي

---

[1] تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، تأليف/ أبي القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي (٤١٧ – ٥٣٨هـ) اعتنى به وخرج أحاديثه وعلق عليه/ خليل مأمون شيحا (دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط الثالثة، ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م): ١٢٢. وينظر: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، المؤلف/ محمود الألوسي أبو الفضل (دار إحياء التراث العربي، بيروت): ٢/ ٨٩.

[2] من أسرار حروف العطف في الذكر الحكيم "الفاء، وثم"، الدكتور/ محمد الأمين الخضري (مكتبة وهبة، القاهرة، ط الثانية، ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٧م): ٢١٣.

مضافًا إلى التغاير، وليس بين الإفاضة المطلقة والمقيدة تراخ؛ فالجواب غير ذلك أن التراخي كما يكون باعتبار الزمان قد يكون باعتبار علو المرتبة، وبُعدها في العلو بالنسبة إلى غيرها، وهو الذي أجاب به بعد مزيد تنشيط وإيضاح"[1].

فالمقصود من الأمر في قوله: ﴿ثم أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ﴾ الالتزام والإفاضة مع بقية الخلق من عرفات لا من غيرها، فالآية كناية عن وجوب التواضع وترك الكبر، ووجوب الوحدة والألفة، فأمر الله لا يمكن رفضه، أو العمل دونه.

وقوله تعالى: ﴿وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ترغيب لقريش بألا يتخلفوا عن المسلمين الآخرين في أداء مناسك الحج، وأن يفيضوا من حيث أفاض الناس، وأن يستغفروا الله؛ فهو الغفور لعباده الرحيم بهم، ولفظ الجلالة الثاني إظهار في موضع الإضمار، والغرض البلاغي من ذلك تعظيم المولى -جل وعلا- والالتذاذ بذكره، وفي الإظهار تأكيد على الاستغفار بعد العبادة، وكثيرًا ما يأمر الله بذكره بعد قضاء العبادات؛ ولهذا ثبت في صحيح مسلم أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- كان إذا انصرف من صلاته استغفر ثلاثًا[2]، فجملة "إن الله غفور رحيم" تذييل

---

[1] الانتصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال بحاشية الكشاف، للإمام ناصر الدين ابن المنير المالكي (دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط الثالثة، ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م): ١٢١، وما بعدها.

[2] الحديث في صحيح مسلم: ١٤٤.

مؤكد لمنطوق الجملة السابقة ومعلل لها؛ فقد أمر المولى –جل وعلا– بالاستغفار قبل هذا التذييل[1].

ومن الملاحظ في قوله تعالى: ﴿وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أن الجملتين منفصلتان لاختلافهما خبرًا وإنشاءً؛ فالأولى أمرهم الله فيها بالاستغفار، والثانية بشرهم فيها بالمغفرة والرحمة، وأُكّدت بـ(إن) واسمية الجملة، وصيغة المبالغة في "غفور رحيم" وتكرار المغفرة؛ للترغيب في المغفرة، وحتى يقبل المخاطب على الاستغفار بنفس مطمئنة متوقعة الاستغفار من رب العالمين، ولا يمنع أن يكون السبب في مجيء الجملة مؤكدة هو التأكيد على أن ما فعلته قريش ومن تبعهم أمر يحتاج إلى الاستغفار، فمكان الإفاضة موحد لجميع الحجاج، وأن على قريش أن يفيضوا من عرفات، ويستغفروا الله؛ يقول أبو السعود: "إن الله غفور رحيم يغفر ذنب المستغفر، وينعم عليه؛ فهو تعليل للاستغفار أو للأمر به"[2].

وختم المولى –جل وعلا– الآية الكريمة بقوله: "غفور رحيم" بتقديم الغفور على الرحيم، ولعل العلة في ذلك أن المغفرة سلامة، والرحمة

---

(1) ينظر: مختصر تفسير ابن كثير، مختصر لتفسير الإمام الجليل الحافظ عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي المتوفي سنة ٧٧٤هـ، اختصار وتحقيق/ محمد علي الصابوني (دار القرآن الكريم، بيروت، لبنان، ط السابعة، ١٤٠٢هـ - ١٩٨١م): ١/ ١٨١. وتفسير القرآن الكريم لابن عثيمين: ٢/ ٤٢٨، وما بعدها.

(٢) إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، المؤلف/ محمد بن محمد العمادي أبو السعود (دار إحياء التراث العربي، بيروت): ١/ ٢٠٩.

غنيمة، والسلامة مطلوبة قبل الغنيمة[١]؛ فـ"كل المواطن التي اجتمع فيها اسما الله العظيمان (الغفور) و(الرحيم) قدم فيها (الغفور) على (الرحيم) إلا موطنًا واحدًا، وهو قوله في سبأ: (وهو الرحيم الغفور)"[٢] [سبأ: ٢]؛ وذلك لأنه لم يتقدم الآية ما يتعلق بالمكلفين، بل تأخر إلى ما بعد، حيث قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ﴾ [سبأ: ٣]، والمكلفون هم الذين بحاجة إلى مغفرة -كما في آية ثم أفيضوا-، أما الرحمة فأمر عام تعم المكلفين وغيرهم؛ فكما تشمل المكلفين تشمل البهائم وسائر الأحياء الأخرى، فلما كان ما تقدم الآية أمرًا عامًا قدم الرحمة التي هي أعم من المغفرة -كما في آية سبأ-، ولما أخر ذكر المكلفين أخر المغفرة لأنها تخصهم، يدلك ذلك على أن جميع المواطن التي تقدم فيها اسم (الغفور) على (الرحيم) تقدم ذكر المكلفين كما في آية (ثم أفيضوا...)[٣].

---

[١] ينظر: البرهان في علوم القرآن، المؤلف/ بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي (المتوفى: ٧٩٤هـ) تحقيق/ محمد أبو الفضل إبراهيم (دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركائه، ط الأولى، ١٣٧٦هـ - ١٩٥٧م): ٣/ ٢٤٩.

[٢] من أسرار البيان القرآني، تأليف الدكتور/ فاضل صالح السامرائي (دار ابن كثير، بيروت، ط الثانية، ١٤٤٠هـ - ٢٠١٩م): ٨٢.

[٣] ينظر: من أسرار البيان القرآني، تأليف الدكتور/ فاضل صالح السامرائي: ١٥٨، وما بعدها.

إفاضة الدمع:

قال تعالى عن أصحاب القلوب اللينة، الذين يبكون خشوعًا عند سماعهم القرآن: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ [المائدة: ٨٣].

جاءت هذه الآية في سياق الحديث عن عداوة اليهود والمشركين للذين آمنوا، وعن مودة النصارى للمؤمنين، وجاء في سبب نزولها ما أورده السيوطي: "أخرج النسائي عن عبد الله بن الزبير قال: نزلت هذه الآية في النجاشي وأصحابه"[(١)]، فقلوبهم لينةٌ؛ حيث إنهم يبكون خشوعًا عند سماع ما أُنزل من القرآن.

وقوله: "وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ" معطوف على قوله: "وَأَنَّهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ" [المائدة: ٨٢] في الآية قبلها، والضمير في: "سَمِعُواْ" يعود على الذين قالوا إنا نصارى، والضمير ظاهره العموم، ومعناه الخصوص فيمن آمن من هؤلاء القادمين من أرض الحبشة؛ إذ إنهم عرفوا الحق وقالوا آمنا، وليس كل النصارى يفعل ذلك، وإنما وقع التخصيص من قوله تعالى: "وإذا سمعوا" وجاء الضمير عامًا؛ إذ قد تحمد الجماعة بفعل الواحد منها، وفي هذا استدعاء للنصارى ولطف من الله بهم[(٢)].

فمن صفات هؤلاء الذين قالوا إنا نصارى زيادة على ما ذكر في قوله تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُواْ وَلَتَجِدَنَّ

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، راجعه وعلق عليه/ محمد إبراهيم الحفناوي، وخرج أحاديثه/ محمود حامد عثمان (دار الحديث، ط الثالثة، ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م): ٥/ ٢٩٠.

(٢) ينظر: المحرر الوجيز، لابن عطية: ٢/ ٢٦٥، وروح المعاني للآلوسي: ٧/ ٤.

أَقْرَبَهُمْ مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ قَالُوَاْ إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [المائدة: ٨٢]؛ أنهم إذا سمعوا ما أنزل على رسول الله – صلى الله عليه وسلم– من قرآن تأثرت قلوبهم، وخشعت نفوسهم، وسالت الدموع من أعينهم بغزارة من أجل ما عرفوه من الحق الذي بيّنه لهم القرآن الكريم بعد أن كانوا غافلين عنه، فالآية الكريمة تظهر صفات طيبة لمن نزلت في شأنهم من التواضع والخشوع وإطاعة الله ورسوله، فمن يتصف بهذه الصفات يتأثر بسماع آيات القرآن الكريم، وتمتلئ أعينهم بالدمع حتى تفيض؛ لشدة خشيتهم ومسارعتهم إلى قبول الحق وعدم إبائهم إياه[1]، ومن ثَمّ كان التعبير بأداة الشرط (إذا) ملائم لهذا المقام؛ فهي تستعمل في الشرط المقطوع به غالبًا.

ويدعم التعبير بـ(إذا) بناء الفعل (أنزل) لما لم يسم فاعله، وحذف الفاعل هنا؛ للعلم به، فمن أسباب تأثرهم بسماع القرآن أنهم يعلمون أنه منزل من عند الله –جل وعلا–، والتعبير عن المضمر بالظاهر (الرسول) من باب خروج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر، وظاهر التعبير (وإذا سمعوا ما أنزل إليك)، لكن أوثر الظاهر على المضمر؛ لتعظيم شأنه –صلى الله عليه وسلم–، والتعبير بـ(الرسول) دون غيره من أسمائه أو صفاته تعريض بمن ينكرون أنه رسول من عند الله.

[1] ينظر: تفسير الكشاف للزمخشري: ٣٠٥، وروح المعاني للألوسي: ٤/٧.

وقد آثر النظم القرآني التعبير بـ(تَرَى) التي "يؤتى بها لتأكيد رؤية مشهد يحرص البيان على تأكيده"[١]؛ فالتعبير بها يدل على كمال يقين تلك الحقيقة، كما أن مجيئها على صيغة المضارعة يصوِّر الحدث ويجعله أمام الأعين، وكأنه يمهد بأن الصورة القادمة خاصة بحاسة البصر – صورة إفاضة الدمع من الأعين– فالخطاب في قوله: (ترى) لكل من تتأتى منه الرؤية، وليس بقاصر على النبي –صلى الله عليه وسلم– فقط؛ فـ"قد يترك الخطاب مع معين إلى غيره ليعم الخطاب كل مخاطب على سبيل البدل"[٢]، وفي التعبير عنهم بقوله: (ترى) مبالغة في مدحهم؛ حيث يراهم الرائي وهم على تلك الصورة من رقة القلب وشدة التأثر عند سماع الحق؛ وأعينهم تتدفق بالدموع من شدة تأثرهم به وحبهم له.

ويتناسب مع التعبير بأداة الشرط (إذا) في الآية التجوز في الإسناد؛ حيث أسند فيض الدمع إلى الأعين مجازًا عقليًا في قوله: "تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ" فحقيقة الفيض: أن يتجاوز السائل الوعاء فيسيل خارجًا عنه، يقال فاض الإناء إذا امتلأ وسال من جوانبه، ويقال فاض الماء والدمع أي: كثر حتى سال[٣]، قال شيخ زاده: "إسناد الفيض إلى الأعين إسناد مجازي كما في جري النهر، وسال الميزاب؛ للمبالغة في وصفهم

---

(١) الشعر الجاهلي دراسة في منازع الشعراء، د/ محمد محمد أبو موسى (مكتبة وهبة، مصر، ط الثانية، ١٤٣٣هـ - ٢٠١٢م): ٣٢.

(٢) ينظر: المطول في شرح تلخيص المفتاح، لسعد الدين التفتازاني الهيروي (المكتبة الأزهرية للتراث مصورة عن طبعة أحمد كامل بتركيا): ٧١.

(٣) ينظر: لسان العرب: فيض.

بالبكاء"[١]؛ فقلبت العبارة من (فاض الدمع من العين) إلى قوله: (أعينهم تفيض من الدمع)، وهو أبلغ؛ لأن العين جعلت كأن كلها دمع فائض، أو كأنها تفيض بأنفسها.

فالأعين لا تفيض، وإنما الذي يفيض الدمع، فأسند الفعل إلى المكان؛ ليدل على المبالغة، والتعبير عن الامتلاء بالفيض مجازًا مرسلًا من وضع المسبب موضع السبب؛ وذلك للمبالغة في السببية كما قال شيخ زاده[٢]، وليس كما قال الشهاب: "بإقامة السبب مقام المسبب"[٣]؛ إذ الفيض مسبب عن الامتلاء كما هو معلوم عقلًا.

ويشير الزمخشري إلى أن مرجع الحسن في إسناد الفعل (تفيض) إلى الأعين ناشئ من تخييل أن المكان يقع منه الحدث، وفيه من المبالغة وقوة التأثير ما ليس في غيره[٤]؛ فالفائض إنما هو دمع العين، قال امرؤ القيس:

ففاضَتْ دموعُ العينِ منّي صَبابةً على النَّحْرِ حتَّى بَلَّ دَمْعِي مِحْمِلي[٥]

---

[١] حاشية محيى الدين شيخ زاده (محمد بن مصلح الدين مصطفى القوجوي الحنفي، المتوفى سنة: ٩٥١هـ) على تفسير القاضي البيضاوي المتوفى سنة/ ٦٨٥هـ، ضبطه وصححه وخرج آياته/ محمد عبد القادر شاهين (دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط الأولى، ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م): ٥٦٨/٣، وما بعدها.

[٢] ينظر: حاشية زاده على البيضاوي: ٥٦٨/٣. وينظر: تفسير الكشاف: ٣٠٥.

[٣] حاشية الشهاب (المُسماة عناية القاضي وكفاية الراضي) على البيضاوي (دار صادر، بيروت): ٢٧٣/٣.

[٤] ينظر: تفسير الكشاف: ٣٠٥.

[٥] الصبابة: رقة الشوق، والمحمل: سير يحمل به السيف. ديوان امرئ القيس، تحقيق/ محمد أبو الفضل إبراهيم (دار المعارف، ط الخامسة، ١٩٩٠م): ٩.

وعن بلاغة هذا التجوز في الإسناد يقول ابن المنير: "وهذه العبارة – أي قوله: تفيض أعينهم من الدمع– من أبلغ العبارات وأنهاها، وهي ثلاث مراتب: فالأولى: فاض دمع عينه – وهذا هو الأصل–، والثانية: محولة من هذه، وهي قول القائل فاضت عينه دمعًا، حولت الفعل إلى العين مجازًا ومبالغة، ثم نبهت على الأصل والحقيقة بنصب ما كان فاعلًا عن التمييز، والثالثة: فيها هذا التحول المذكور، وهي الواردة في الآية، إلا أنها أبلغ من الثانية بإطراح المنبهة على الأصل وعدم نصب التمييز، وإبرازه في صورة التعليل"[1].

فالتعبير بفيض الدمع في الآية الكريمة أظهر شدة الأثر الذي تتركه آيات القرآن الكريم في نفوس مستمعيه؛ فالأعين فاضت من الدمع بسبب معرفتهم للحق المبين.

والتعبير بصيغة المضارع (تفيض) يجعل الصورة مشاهدة مرئية؛ وكأننا نرى أمام أعيننا هذا المشهد الحي لهذه الفئة من الناس؛ الذين إذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول من هذا القرآن اهتزت مشاعرهم، ولانت قلوبهم، وفاضت أعينهم بالدمع تعبيرًا عن تأثرهم بالحق الذي سمعوه، وهذه الحالة معروفة في النفس البشرية؛ فحين يبلغ بها التأثر درجة أعلى من أن يفي بها القول يفيض الدمع؛ ليؤدي ما لا يؤديه القول، وليطلق الشحنة الحبيسة من التأثر العميق العنيف، وعلى هذا يكون معنى (من) في قوله تعالى: "مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ الحق"، "الأولى لابتداء الغاية على أن

(1) الانتصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال بحاشية الكشاف: ٣٠٥. وينظر: حاشية الشهاب على البيضاوي: ٣/ ٢٧٣.

فيض الدمع ابتدأ ونشأ من معرفة الحق وكان من أجله وبسببه، والثانية لتبيين الموصول الذي هو ما عرفوا، وتحتمل معنى التبعيض على أنهم عرفوا بعض الحق، فأبكاهم وبلغ منهم، فكيف إذا عرفوه كله وقرأوا القرآن وأحاطوا بالسنة"؟[1].

ثم حكى –سبحانه– ما قالوه بعد سماعهم للحق فقال: "يَقُولُونَ رَبَّنَآ آمَنَّا فاكتبنا مَعَ الشاهدين"، أي: آمنا بما أنزلته ومن أنزلت عليه، واجعلنا عندك يا رب من أمة محمد –صلى الله عليه وسلم– الذين يشهدون يوم القيامة على تبليغ الرسل ما أمرت بتبليغه إليهم[2].

وقال –تعالى– في سياق الحديث عن المتخلفين عن الجهاد بعذر:﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ﴾ [التوبة: ٩٢].

تُظهر هذه الآية الكريمة الرغبة الصحيحة في الجهاد والألم الصادق للحرمان، فقد نزلت "في البكائين؛ وكانوا سبعة: معقل بن يسار، وصخر بن خنيس، وعبد الله بن كعب الأنصاري، وسالم بن عمير، وثعلبة بن غنمة، وعبد الله بن مغفل، أتوا رسول الله –صلى الله عليه وسلم– فقالوا:

---

(1) تفسير الكشاف: ٣٠٥، وما بعدها. وينظر: حاشية الشهاب على البيضاوي: ٢٧٣/٣، ما بعدها.

(2) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن، لمحمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري (المتوفى : ٣١٠هـ) تحقيق/ أحمد محمد شاكر(مؤسسة الرسالة، ط الأولى، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م): ٦/٧، ومواهب الرحمن في تفسير القرآن، تأليف/ عبد الكريم محمد المدرس (دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط الأولى، ١٤٣٥ هـ - ٢٠١٤م): ٣/ ١٣٨، وتفسير الكشاف للزمخشري: ٣٠٦، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي: ٦/ ١٦٧، وروح المعاني للآلوسي: ٧/ ٥.

يا نبي الله إن الله –عز وجل– قد ندبنا للخروج معك، فاحملنا على الخفاف المرفوعة والنعال المخصوفة نغزو معك، فقال: (لا أجد ما أحملكم عليه)، فتولوا وهم يبكون. وقال مجاهد: نزلت في بني مقرن معقل وسويد والنعمان"[1].

قوله تعالى: "وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ" عطف على "المحسنين" في قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى الضُّعَفَاء وَلاَ عَلَى الْمَرْضَى وَلاَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُواْ لِلّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ٩١] وهو من عطف الخاص على العام؛ اعتناء بشأنهم، وإيماء إلى نفي الحرج عنهم، وعبر عن هؤلاء بالموصول وصلته؛ لتخصيصهم بمضمون الصلة لما في ذلك من التلطف بهم والترقق عليهم.

وقوله: ﴿إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا﴾ أي: إذا أتوك ولم يكن عندك ما تحملهم عليه تولَّوا يبكون، وقد آثر التعبير القرآني (إِذَا) على (إن)؛ ليدل على أن سعيهم على الجهاد أمر متحقق ومؤكد، وليس مشكوكًا فيه، ومجيء (مَا) بعدها؛ يؤكد المعنى ويقرره، وعدم التأخر في ورود جواب الشرط "تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا" يشير إلى أنه بمجرد علمهم من الرسول بأنه لا يجد ما يحملهم عليه تولوا وهم يبكون في ذات الوقت؛ فالواو في (وأعينهم) تشير إلى ذلك، ومجيء الجواب بصيغة الماضي يدل على

---

[1] أسباب النزول، تأليف/ أبي الحسن على بن أحمد الواحدي النيسابوري، ت: ٤٦٨هـ، تخريج وتدقيق/ عصام بن عبد المحسن الحميداني (دار الإصلاح، الدمام، ط الثانية، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م): ٢٥٧. وينظر: تفسير البيضاوي المسمى: أنوار التنزيل وأسرار التأويل: ٢/ ٧٢، وما بعدها، وإرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم: ٤/ ٩٢، وروح المعاني: ١٠/ ١٥٩.

تحقق وثبوت أنهم تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزنا على ما فاتهم من شرف الجهاد، مع أن من طبيعة بعض الناس –الذين يفقدون حرارة الإيمان– الفرح بالنجاة من الأخطار، والابتعاد عن غائلة الحروب، ولكن الإيمان جعل هؤلاء يرون في فوات هذه الغزوة عليهم فوات شيء ثمين يستحق الحزن.

وأراد الحق –سبحانه وتعالى– أن يبين لنا شدة حزن المؤمنين على حرمانهم من الجهاد، فقال: "تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ"، ولم يقل: (فاضت دموعهم)، فأسند فعل الفيض إلى العين، وكأنها هي التي تفيض، وذلك عن طريق المجاز العقلي الذي علاقته المكانية؛ فالعين لا تفيض إنما الذي يفيض الدمع، والتعبير عن الامتلاء بالفيض مجازًا مرسلًا علاقته: المسببية؛ فالفيض مسبب عن الامتلاء، والتعبير بالمجاز –هنا– أظهر مدى صدقهم وإخلاصهم في طلب الخروج مع النبي –صلى الله عليه وسلم– ومدى الألم والحزن الذي أصابهم جَرَّاء تخلفهم عن الخروج مع عذرهم، كما أفاد –أيضًا– المبالغة؛ لأن العين جُعلت كأنها كلها دمع فائض، فتفيض دمعًا أبلغ من يفيض دمعها، ومرجع الحسن في إسناد الفعل تفيض إلى الأعين ناشئ من تخييل أن المكان يقع منه الحدث، وفيه من المبالغة وقوة التأثير ما ليس في غيره[1].

---

[1] ينظر: مفاتيح الغيب، للإمام العالم العلامة والحبر البحر الفهامة فخر الدين محمد بن عمر التميمي الرازي الشافعي (دار الكتب العلمية، بيروت، ط الأولى، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م): ١٢٩/١٦، والتحرير والتنوير: ٥/ ١٨٦، وما بعدها، والبلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري، د/ محمد محمد أبو موسى (دار التضامن، القاهرة، ط الثانية، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م): ٥٣٩، وما بعدها.

والتعبير بقوله: (تفيض) أبلغ من التعبير بغيرها كـ(تبكي) مثلًا؛ لأن الإفاضة تدل على أن أعينهم امتلأت ثم فاضت، فدموعهم سالت من تلقاء أنفسها، وكأن أعينهم ليس لها من صفات العين شيء كالإبصار ونحوه إلا البكاء؛ فـ(من) في قوله: (تفيض من الدمع) أفادت معنى التجريد؛ فجردت من الدمع عيناً دامعة، مما يدل على أن فيض دموعهم كان بغزارة منقطعة النظير.

إفاضة الماء:

قال تعالى في سياق بيان مشهد حديث أهل النار مع أهل الجنة يوم القيامة: ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [الأعراف: ٥٠].

صورت هذه الآية الكريمة حالة أهل النار، وما يعانون فيها من عذاب أليم، فهم في صورة ذليلة نافرة يطلبون ويتمنون من أهل الجنة أن يسقوهم ويطعموهم، مع علمهم أنهم لا يُجابون إلى ذلك، فالأمر في (أفيضوا) خرج من معناه الأصلي لغرض التمني المشوب باليأس القاتل من حصول الأمر المطلوب؛ "لأنهم قد عرفوا دوام عقابهم، وأنه لا يفتر عنهم، ولكن الآيس من الشيء قد يطلبه كما يقال في المثل (الغريق يتعلق بالزبد)، وإن علم أنه لا يغيثه"[1].

والأمر في الآية يدل على الحيرة والاضطراب والتخبط عند أصحاب النار، فهم يعلمون أن ما في الجنة محرم عليهم، ولكنهم لفرط ما

[1] مفاتيح الغيب: ٧٦/١٤.

هم فيه من العذاب صاروا يطلبون ما لا سبيل إلى تحقيقه، وإنما يطلبون ذلك مع يأسهم من الإجابة كما يفعل المضطر الممتحن[١].

ونداء أصحاب النار لأصحاب الجنة مما لا شك فيه أنه يكون في الدار الآخرة، فكان سياق الكلام أن يقال: وينادي أصحاب النار أو سينادى، لكنه عبر بصيغة الماضي على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية؛ حيث شبه المستقبل بالماضي بجامع التحقق والوجود في كل، فاشتق من النداء (نادى) بمعنى (ينادي)، والقرينة معنوية؛ لأن الحديث عن يوم القيامة[٢].

والهدف من التعبير عن المستقبل بالماضي هو تحقق وقوعه، فهو واقع لا محاله، فالتعبير عن المستقبل بالماضي يجعل هذه الأحداث كأنها "قد وقعت فعلًا ومضت للدّلالة على تحقق وقُوعها في المستقبل، ولإعطاء الأحداث المستقبليّة صُوَرَ قصص تمَّ حُدُوثها، فهي تُقَدّم بتصوير فنيٍّ مطابق للواقع، ومعلوم لدى كلِّ ذَوَّاقٍ للتصوير الفني في القصص أن ما كان منها أكثر مطابقة للواقع كان أكثر تأثيرًا في النفوس، واستثارة للمشاعر"[٣].

---

[١] ينظر: تفسير الكشاف: ٣٦٥، ودلالات التراكيب دراسة بلاغية، دكتور/ محمد محمد موسى (مكتبة وهبة، القاهرة، ط الخامسة، ١٤٣٥هـ - ٢٠١٤م): ٢٦٩.

[٢] ينظر: البلاغة بين البيان والبديع، د/ فهد خليل زايد (دار يافا العلمية للنشر، الأردن، ط الأولى، ٢٠٠٩م): ٩٧.

[٣] البلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها، تأليف وتأمل/ عبد الرحمن حسن حبنكة، (دار القلم، دمشق، ط الأولى، ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م): ٥١٠/١.

والتعبير عن الخطاب بين أصحاب النار وأصحاب الجنة في الأخرة بالنداء دون القول كناية عن بلوغه أسماع أصحاب النار من مسافة سحيقة البعد، فإن سعة الجنة وسعة النار تقتضيان ذلك، لا سيما مع قوله تعالى: "وبينهما حجاب" [الأعراف: ٤٦][1].

وبين قوله: أصحاب النار، وأصحاب الجنة طباق أظهر الفرق بين الجنة والنار، ومن ثمّ الترغيب في عمل الخيرات لدخول الجنة والبعد عن النار، فالطباق له ميزة كبرى؛ تتمثل في إحضار الشيء وضده في ذهن السامع مرة واحدة، وهذا من شأنه إبراز المعنى، وتعميق الإحساس به.

والتعبير بـ(أفيضوا) في الآية أمكن من التعبير بغيرها كـ(اسقونا) مثلًا؛ لأنها تقتضي الكثرة والتوسعة، فتدل على شدة ما يعانيه أهل النار من عذاب شديد، وفيه دلالة على ما فيه أصحاب الجنة من نعيم ومنزلة كبيرة؛ لذا فالتعبير بالإفاضة أنسب في الدلالة على ذلك من غيره، وتناسب مع التعبير بالإفاضة الدالة على الكثرة والتوسعة تكرار كلمة (أصحاب)؛ فكلمة الصاحب تطلق على مالك الشيء والقائم عليه، وهذا يعني ملازمة النعيم لأصحاب الجنة، وملازمة العذاب لأصحاب النار، ومن ثمّ طلبهم الإفاضة من الماء أو مما رزق الله أصحاب الجنة.

وإنما طلبوا الماء أولًا قبل غيره من سائر الأشربة والأطعمة؛ وجاء منفردًا، وهو من جملة ما رزقهم الله "أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ"؛ لأن من كان

---

[1] ينظر: التحرير والتنوير: ٨/ ١٠٤.

في سموم وحميم ولهيب وحريق فإن شعوره بالحاجة إلى الماء أشدّ من شعوره بالحاجة إلى غيره، ولِما يعلم –أيضًا– أنّ من عادة الماء إطفاء النار وإخمادها[1].

والطلب بـ(أفيضوا) الدالة على الكثرة والتوسعة، والتعبير بـ(من) التي تفيد التبعيض في قوله: "أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ" يدل على أنهم وإن طلبوا الكثير إلا أنه قليل بالنظر لنعيم أهل الجنة، ويتناغم مع هذه الكثرة الإيهام في الاسم الموصول (ما) التي تفيد التنوع والكثرة في الرزق؛ فقوله: "مما رزقكم الله" كناية عن جميع الأشربة والأطعمة التي يتنعم بها أهل الجنة.

وكان رد أصحاب الجنة على أصحاب النار "إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ"، فالضمير عائد على الماء، وعلى الذي يشمله رزق الله من غيره كسائر الأشربة والأطعمة، والتأكيد بـ(إن) واسمية الجملة لا شك أنه يفيد الخيبة التامة لأصحاب النار، فكما حرموا أنفسهم من الإيمان في الدنيا حُرموا من نعيم الأخرة[2].

---

[1] ينظر: تفسير البحر المحيط: ٣٠٧/٤، ومفاتيح الغيب للفخر الرازي: ٧٧/١٤، غرائب القرآن ورغائب الفرقان، تأليف/ نظام الدين الحسن بن محمد بن حسين القمي النيسابوري (دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط الأولى، ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م): ٢٤١/٣، وتفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار) لمحمد رشيد بن علي رضا (المتوفى: ١٣٥٤هـ) (الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٠م): ٣٩٠/٨.

[2] ينظر تفسير الطبري: ١٤٤/٨، وتفسير القرطبي: ٢١٦/٧، وروح المعاني للألوسي: ١٢٦/٨، وفتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، تأليف/ محمد بن علي بن محمد الشوكاني، اعتنى به وراجع أصوله/ يوسف الغُوش (دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط الرابعة، ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م): ٢١٨/٢.

الإفاضة في العمل:

قال تعالى في سياق اطلاعه على كل شيء: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [يونس: ٦١].

يخبر الله –سبحانه وتعالى– في هذه الآية نبيه صلوات الله عليه وسلامه عن عموم مشاهدته، واطلاعه على جميع أحواله وأحوال أمته، وجميع الخلائق في كل ساعة وآن ولحظة، وأنه لا يعزُب عن علمه وبصره مثقالُ ذرة في حقارتها وصغرها في السموات ولا في الأرض، ولا أصغر منها ولا أكبر إلا في كتاب مبين[1]، و"مناسبة هذه الآية لما قبلها أنه تعالى لما ذكر جملة من أحوال الكفار ومذاهبهم والرد عليهم، ومحاورة الرسول –صلى الله عليه وسلم– لهم، وذكر فضله تعالى على الناس، وأن أكثرهم لا يشكره على فضله، ذكر تعالى اطلاعه على أحوالهم وحال الرسول معهم في مجاهدته لهم، وتلاوة القرآن عليهم، وأنه –تعالى– عالم بجميع أعمالهم"[2].

والخطاب في قوله تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ﴾ للرسول –صلى الله عليه وسلم– والشأن هو: الحال والأمر، ولا

---

[1] ينظر: مختصر تفسير ابن كثير: ٢/ ١٩٨. وتيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، تأليف العلامة الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي، تحقيق د/ عبد الرحمن بن مُعلا اللويحق (دار السلام للنشر والتوزيع، ط الثانية، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م): ٤٢٢.

[2] تفسير البحر المحيط: ٥/ ١٧١، وما بعدها.

يقال إلا فيما يعظم من الأحوال والأمور[1]، والتعبير في خطابه -صلى الله عليه وسلم- بالشأن يدل على أن جميع أموره وأعماله كانت عظيمة، حتى العادات منها، وتنكير (شأن) يفيد العموم؛ فالحق سبحانه عالم بجميع شؤونه عليه الصلاة والسلام، وقوله: "وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ" مندرج تحت عموم شأن، فهو من ذكر الخاص بعد العام؛ وذكر التلاوة مع دخولها في عموم الشأن يفيد أن القرآن هو أعظم شؤونه عليه الصلاة والسلام، وتنبيهًا على علو مرتبته[2].

و(مَا) في قوله: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا﴾ نافية، وكلمة (إِلَّا) للاستثناء من النفي؛ أي ما كان عمل النبي معهم ولا عملهم معه إلا كنا عليه شهودا، والجار والمجرور في قوله: "إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا" متعلق بما بعده، ولعل تقديمه للاهتمام بتخويف من أريد تخويفه من المخاطبين، وكأنه للمبالغة فيه جيء بضمير العظمة[3].

---

[1] ينظر: الصحاح، تاج اللغة وصحاح العربية، تأليف/ إسماعيل بن حماد الجوهري، تحقيق/ أحمد عبدالغفور عطار (دار العلم للملايين، ط الرابعة، ١٩٩٠م) ولسان العرب، والمفردات في غريب القرآن: شأن.

[2] ينظر: تفسير المنار: ١١/ ٣٣٩، ومفاتيح الغيب: ١٧/ ٩٨، وتفسير البحر المحيط: ٥/ ١٧١، والتحرير والتنوير: ١١/ ١١٩، واللباب في علوم الكتاب، تأليف/ أبو حفص عمر بن علي ابن عادل الدمشقي الحنبلي (دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط الأولى، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م):١٠/ ٣٦٢، وغرائب القرآن ورغائب الفرقان: ٣/ ٥٩٤.

[3] ينظر: زهرة التفاسير، لمحمد بن أحمد بن مصطفى بن أحمد المعروف بأبي زهرة (المتوفى: ١٣٩٤هـ) (دار الفكر العربي): ٧/ ٣٦٠٠، وما بعدها، وروح المعاني للآلوسي: ١١/ ١٤٤، والتحرير والتنوير: ١١/ ٢١٣.

وجمع الضمير في قوله: "وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا" مع أنه أفرد في أول الآية: "وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ"؛ وذلك للدلالة على أن الأمة داخلون مع النبي –صلى الله عليه وسلم– فيما خوطب به قبل، فقوله: "إلا كنا عليكم شهودًا" فيه تحذير وتنبيه؛ لذا عدل الحق –سبحانه وتعالى– عن خطابه –صلى الله عليه وسلم– إلى خطاب أمته بقوله: "ولا تعملون من عمل"، وإن كان الله شهيدًا على أعمال الخلق كلهم، وقوله: "من عمل" مفعول (تعملون)، فهو مصدر بمعنى المفعول، وأدخلت عليه (من) لإفادة التعميم؛ ليشمل العمل الجليل والحقير والخير والشر، فدخول (من) التبعيضية على النكرة المنفية يؤكد هذا العموم[1].

وبالتأمل في تعميم الخطاب في قوله: "وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ" بعد تخصيصه في قوله: "وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ" يتضح أن فيه إشارة إلى أن أعماله –صلى الله عليه وسلم– كلها خير بخلاف باقي البشر، قال أبو السعود في تفسيره: "(وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ) تعميم للخطاب إثر تخصيصه بمقتدى الكل، وقد روعي في كل من المقامين ما يليق به؛ حيث ذكر أولًا من الأعمال ما فيه فخامة وجلالة، وثانيًا ما يتناول الجليل والحقير"[2]، وهذا هو المفهوم من كلام الإمام البيضاوي إذ

(1) ينظر: تفسير البحر المحيط: ٥/ ١٧١ وما بعدها، والتحرير والتنوير: ١١/ ١١٩ وما بعدها، وتفسير المنار: ١١/ ٣٣٩.

(2) إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم: ٤/ ١٥٧.

قال: "تعميم للخطاب بعد تخصيصه بمن هو رأسهم، ولذلك ذكر حيث خص ما فيه فخامة، وذكر حيث عم ما يتناول الجليل والحقير"[1].

وللطاهر بن عاشور كلام طيب في قوله: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ﴾ يدل على دقته؛ إذ قال: "ووقع النفي مرتين بحرف (ما) ومرة أخرى بحرف (لا)؛ لأن حرف (ما) أصله أن يخلص المضارع للحال، فقصد أولًا استحضار الحال العظيم من شأن النبي –صلى الله عليه وسلم– ومن قراءته القرآن، ولما نفي عمل الأمة جيء بالحرف الذي الأصل فيه تخليصه المضارع للاستقبال؛ للتثنية من أول الكلام على استمرار ذلك في الأزمنة كلها، ويعلم من قرينة العموم في الأفعال الثلاثة بواسطة النكرات الثلاث المتعلقة بتلك الأفعال والواقعة في سياق النفي أن ما يحصل في الحال وما يحصل في المستقبل من تلك الأفعال سواء، وهذا من بديع الإيجاز والإعجاز، وكذلك الجمع بين صيغ المضارع في الأفعال المعممة (تكون، وتتلو، وتعملون) وبين صيغة الماضي في الفعل الواقع في موضع الحال منها (إلا كنا) للتنبيه على أن ما حصل ويحصل وسيحصل سواء في علم الله –تعالى– على طريقة الاحتباك كأنه قيل: وما كنتم وتكون وهكذا إلا كنا ونكون عليكم شهودا"[2].

---

[1] تفسير البيضاوي المسمى: أنوار التنزيل وأسرار التأويل: ٢/ ١٠٧، وينظر: ومفاتيح الغيب: ١٧/ ٩٨، وحاشية الشهاب على البيضاوي: ٥/ ٤٣، وروح المعاني: ١١/ ١٤٤.

[2] التحرير والتنوير: ١١/ ١١٩.

وقوله تعالى: "إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ" الإفاضة –هنا– الدخول في العمل على جهة الانصباب إليه، والشروع فيه بقوة واهتمام، والضمير في (فيه) يعود إلى (عمل) أي: لا تعملون عملا إلا يعلمه سبحانه وقت أن تندفعوا فيه مسترسلين سواء كان خيرا أم كان شرا، دقَّ أو جل[١].

والتعبير بهذه المادة (فيض) "مؤذنة بأن المراد أعمالهم في مرضاة الله ومصابرتهم على أذى المشركين، وخصت هذه الحالة وهذا الزمان بالذكر بعد تعميم الأعمال اهتمامًا بهذا النوع؛ فهو كذكر الخاص بعد العام، كأنه قيل: ولا تعملون من عمل ما وعمل عظيم تفيضون فيه إلا كنا عليكم شهودا حين تعملونه وحين تفيضون فيه"[٢]؛ فـ"الإفاضة في العمل أخص من إتيانه مطلقًا، وحكمة تخصيصها بالذكر دون اللفظ الأعم منها؛ هي أنما يفيض فيه الإنسان مهتمًا به مندفعًا فيه، جديرٌ بألا ينسى أو يغفل عن مراقبة ربه فيه، واطّلاعه عليه؛ فاللفظ يذكّره به تذكيرًا منبّهًا مؤثرًا"[٣].

وزيادة في التعميم وبيان إحاطته سبحانه وتعالى بكل شيء قال: "وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ في الأرض ولا في السماء" الكلام على حذف مضاف؛ أي وما يبعد وما يغيب عن علم ربك عز وجل، أو هو كناية عن ذلك؛ فلا يغيب عن علمه –سبحانه– شيء وإن كان في غاية

---

(١) ينظر: مفاتيح الغيب: ١٧/ ٩٩، وتفسير روح البيان، تأليف الإمام إسماعيل حقي بن البروسوي المتوفي سنة ١١٣٧م (در سعادت، مطبعة عثمانية، ١٣٣٠هـ): ٤/ ٥٧، وزهرة التفاسير: ٧/ ٣٦٠١.

(٢) التحرير والتنوير: ١١/ ١٢٠.

(٣) تفسير المنار: ١١/ ٣٣٩.

الحقارة في كل زمان ومكان[1]، ولذا آثر النظم القرآني التعبير بالمضارع (يعزب) الذي يفيد التجدد؛ فإحاطته سبحانه متجددة تشمل جميع الأزمنة والأمكنة، وقد زاد هذا المعنى وضوحًا بالطباق بين (الأرض، والسماء)، و(أصغر، وأكبر) فسبحانه يعلم كل شيء صغر أو كبر في الأرض أو في السماء، فإحاطته مطلقة يحيط بكل ما كان، وما هو كائن، وما سيكون، "وفي التعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميره صلى الله عليه وسلم من الإشعار باللطف ما لا يخفى"[2].

وخص المولى -عز وجل- الأرض والسماء بالذكر مع أنه -سبحانه- لا يغيب عنه شيء لا فيهما ولا فيما هو خارج عنهما؛ لأن الناس لا يشاهدون سواهما وسوى ما فيهما من المخلوقات[3].

وبالتأمل في هذا القول المبارك يلاحظ تقديم الأرض على السماء؛ وذلك لأن الخطاب في أول الآية لأهل الأرض "وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا"، جاء في الكشاف: "فإن قلت لِمَ قُدمت الأرض على السماء بخلاف قوله في سورة سبأ: (عالم الغيب لا يعزب عنه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض) [سبأ:٣]؟ قلت: حق السماء أن تقدم على الأرض، ولكنه لما ذكر شهادته على شؤون أهل الأرض وأحوالهم

---

(١) ينظر: روح المعاني للآلوسي: ١١/ ١٤٤، وغرائب القرآن ورغائب الفرقان: ٣/ ٥٩٥.

(٢) روح المعاني للآلوسي: ١١/ ١٤٤.

(٣) ينظر: فتحُ البيان في مقاصد القرآن، تأليف/ أبو الطيب محمد صديق خان بن حسن بن علي بن لطف الله الحسيني البخاري القِنَّوجي (المتوفى: ١٣٠٧هـ) عني بطبعهِ وقدّم له وراجعه: خادم العلم عَبد الله بن إبراهيم الأنصَاري (المكتبة العصريَّة للطباعة والنّشر، صيدا، بيروت، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م): ٦/ ٨٧.

وأعمالهم ووصل بذلك قوله: (لا يعزب عنه) لاءم ذلك أن قدّم الأرض على السماء"[1]، فتقديم الأرض على السماء في الآية؛ لأنها كانت مسوقة من شأن أهل الأرض، فقدم ذكر الأرض تنبهًا على ذلك لما كان له اختصاص به؛ فالكلام في الآية الكريمة عن أحوال أهل الأرض وشئونهم، فهي محل استقرارهم ويشاهدون ما فيها من قرب[2]، ولأنه لما كان "السياق سياق تحذير وتهديد للبشر، وإعلامهم أنه سبحانه عالم بأعمالهم دقيقها وجليلها، وأنه لا يغيب عنه منها شيء؛ اقتضى ذلك ذكر محلهم وهو الأرض قبل ذكر السماء"[3]، كما أن تقديم الأرض فيه دلالة على إحاطة المولى جل وعلا بتفاصيلها، وذكر السماء تتميم للمعنى؛ لإفادة إحاطته تعالى بأطراف الكون كله، بخلاف الآية في سورة سبأ (لا يعزب عنه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض) [سبأ: ٣] فإنها منتظمة بقوله: (عالم الغيب)؛ إذ علم مغيبات السموات أكثر وأدل على بالغ علمه تعالى[4].

---

(١) تفسير الكشاف: ٤٦٧، وينظر: مفاتيح الغيب: ١٧/ ٩٩. والمثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، لضياء الدين بن الأثير، قدمه وعلق عليه د/ أحمد الحوفي، د/ بدوي طبانة (دار نهضة مصر للطبع والنشر) (د.ت): ٢٢٧/٢.

(٢) ينظر: الطراز، للإمام يحيى بن حمزة بن على بن إبراهيم العلوي اليمني، تحقيق د/ عبد الحميد هنداوي (المكتبة العصرية، بيروت، ط الأولى، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م): ٢/ ٤٢، وما بعدها. وفتح البيان في مقاصد القرآن: ٦/ ٨٧.

(٣) بدائع الفوائد، تأليف/ الإمام أبي عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن القيم الجوزية (٦٩١ – ٧٥١)، تحقيق/ علي بن محمد العمران (دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع): ١/ ١٣١.

(٤) ينظر: بدائع الفوائد: ١/ ١١١، ودرّة التنزيل وغرة التأويل في بيان الآيات المتشابهات في كتاب الله العزيز، الخطيب الاسكافي، برواية ابن أبي الفرج الأردستاني (دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط الرابعة، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م): ٣٨٦.

وقوله: ﴿وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ جملة مستقلة مُؤكِّدة لما قبلها بتعبير أدقّ وأشمل، و(لا) هنا تأكيد للنفي في (ومَا يَعْزُبُ...)، وكل هذا مكتوب في كتاب مبين؛ أي بيَّن واضح يبرز يوم القيامة منشورا معلما كل ما فيه، وقدم قوله: (وَلَا أَصْغَرَ) على قوله: (وَلَا أَكْبَرَ)؛ لأنه هو الأهم في سياق العلم الخفي من الأمور، ولأنه تعالى لما ذكر أنه لا يغيب عن علمه أدق الأشياء (لا يعزب عنه مثقال ذرة) مما لا نشاهده من دقائق الكون وخفاياه ناسب ذلك تقديم قوله: (وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ) ثم أتى بقوله: (وَلَا أَكْبَرَ) على سبيل إحاطة علمه بجميع الأشياء[1].

الإفاضة في الحديث:

قال جل وعلا في بيان فضله ورحمته على عباده: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النور:١٤].

جاءت هذه الآية في سياق حديث الحق –جل وعلا– عن حادث الإفك حين تحدث بعضهم عن السيدة عائشة –رضي الله عنها– وشككوا فيها، الأمر الذي أهم النبي –عليه الصلاة والسلام– وقد برأ الله أم المؤمنين من فوق سبع سموات ونزلت آيات تتلى آناء الليل وأطراف النهار كشفت حقيقة الأمر، وذمت من تناول الكلام عن أم المؤمنين، ومعنى الآية الكريمة: أن لولا رحمة الله بكم في الدنيا بأن أمهلكم للتوبة، وعفا عنكم في الآخرة لإيمانكم لأنزل بكم العذاب بسبب ما خضتم فيه من كلام، وما

[1] ينظر: زهرة التفاسير: ٧/ ٣٦٠١، وتفسير البحر المحيط: ٥/ ١٧٢.

تحدثتم به من كلمات في حق السيدة عائشة –رضي الله عنها–، فـ(لولا) في صدر الآية حرف امتناع لوجود؛ أي امتناع العذاب العظيم لوجود فضل الله ورحمته(١).

وقوله: (أفضتم) أي: خضتم أو تحدثتم، وقد آثر النظم الجليل التعبير عن الحديث بـ(أفضتم) دون غيرها؛ للدلالة على إكثارهم من ادعائهم الباطل حتى انتشر وذاع، فأفاض في الحديث: توسَّع فيه وأطنب، أفاض القول ليؤكِّد فكرته، فهي تؤدي من المعنى ما لا يؤديه غيرها، وذلك لأن الإفاضة: صب الماء في الإناء وامتلاؤه وخروجه من جوانبه(٢)، وهذا ما حصل منهم فعلًا؛ فهم لم يتحدثوا فقط، بل أسرفوا في الحديث وأشاعوه وتزيّدوا فيه حتى بلغ حدًّا لا يُحتمل، وكادت أرجاء المدينة أن تضيق به فيسيل منها إلى غيرها، وعلى ذلك يكون قوله: "(أَفَضْتُمْ) فيه مجاز بالاستعارة؛ إذ شبه حديثهم الذي خاضوا فيه غير محترسين ولا مفكرين، بالماء الذي يسيل، فلا يضبط، وكأن الحديث يسيل سيلا زائدا عن حده، وبغير غاية"(٣).

وقد آثر النظم الجليل التعبير بالمس في قوله: "لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ" والمس "يُقال في كلّ ما ينال الإنسان من أذى"(٤)، وهو: "اتصال الشيء بالبشرة بحيث تتأثر الحاسة به"(٥)، لذا فالتعبير بالمس في هذه الآية

(١) ينظر: مختصر تفسير ابن كثير: ٢/ ٥٩١.
(٢) ينظر: لسان العرب، ومعجم اللغة العربية المعاصرة: فيض.
(٣) زهرة التفاسير: ١٠/ ٥١٦٠. وينظر: التحرير والتنوير: ١٤٢/١٨.
(٤) المفردات في غريب القرآن: مسس.
(٥) تفسير البيضاوي المسمى: أنوار التنزيل وأسرار التأويل: ١١٤/١.

مناسب للعذاب العظيم في الدنيا، وهو الجلد للذين يرمون المحصنات، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً...﴾ [النور: ٤]، ومناسب للعذاب في الآخرة، وكلا العذابين محله البشرة.

والجمع بين الدنيا والآخرة في قوله: "وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ" طباق؛ فكل منهما مضاد للآخر، وفائدة الجمع بينهما في الآية الكريمة: بيان أن لولا رحمة الله بمن تحدثوا عن السيدة عائشة -رضي الله عنها- في الدنيا والآخرة لأنزل عليهم العذاب العظيم بسبب ما خاضوا فيه من كلام وتحدثوا به من كلمات، فلولا فضل الله عليهم ورحمته لنزل بهم جميع أنواع العذاب، لاسيما وأن كلمة عذاب جاءت نكرة؛ فتشمل جميع أنواع العذاب النفسي والجسدي، وتفيد التعظيم والتهويل(١).

وقال تعالى في سياق الرد على ادعاء الكفار أن الرسول -صلى الله عليه وسلم- قد اختلق القرآن: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَى بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الأحقاف: ٨].

تحكي هذه الآية الكريمة جانبًا من أكاذيب الكفار بأن هذا القرآن مفترى، وقد كانوا يكثرون القول في القرآن من باب قولهم شعر، وكهانة، وسحر، وافتراه، إلى آخره، فلقن الله نبيه -صلى الله عليه وسلم- الرد "أَمْ

(١) ينظر: زهرة التفاسير: ١٠/ ٥١٦٠.

يَقُولُونَ افْتَرَاهُ..." أي: قل لهم –أيها الرسول الكريم– إن كنت على سبيل الفرض والتقدير قد افتريته عاقبني ربى، ولا تستطيعون أنتم أو غيركم أن تمنعوا عني شيئا من عذابه وعقابه، فكيف أفتري القرآن على الله وأتعرض لعقابه؟![1]، فهم أعلم الناس بأن هذا الخوض من الباطل؛ لأنهم مستيقنون أن القرآن الكريم ليس من كلام البشر.

وقد آثر النظم القرآني التعبير عن الحديث بقوله: (تُفِيضُونَ) للدلالة على أنهم يكثرون الكلام حول القرآن الكريم، وأن ما يقولونه غيض من فيض؛ فالإفاضة من فاض الماء إذا كثر وصار غامرًا، والإفاضة في الحديث: الخوض فيه والإكثار منه، وحديث مستفيض منتشر[2]؛ فالتعبير عن القول بالإفاضة يدل على إكثارهم من ادعائهم الباطل حتى انتشر وذاع.

و(أم) في قوله: "أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ" معناها بل والهمزة، أي بل أيقولون افتراه أي: اختلقه من نفسه، وبل تفيد الإضراب، والإضراب هنا إضراب انتقالي أي ينتقل فيه الكلام إلى نوع آخر من ضلال أقوالهم، مع بقاء المعنى الأول وعدم إبطاله، ومعنى الهمزة في (أم): الإنكار والتعجيب، كأنه قيل: دع هذا واسمع القول المنكر العجيب[3]، "وسلك في الانتقال مسلك الإضراب دون أن يكون بالعطف بالواو؛ لأن الإضراب يفيد أن

(١) ينظر: التفسير الوسيط للقرآن الكريم، تأليف/ لجنة من العلماء بإشراف مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر، (مطبعة المصحف الشريف، ط الثالثة، ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م): ٣/ ٩٠٦.
(٢) ينظر: لسان العرب، والمفردات في غريب القرآن: فيض.
(٣) ينظر: تفسير الكشاف: ١٠٠٩، وآل حم الجاثية – الأحقاف دراسة في أسرار البيان، دكتور/ محمد محمد أبو موسى (مكتبة وهبة، ط الأولى، ١٤٣٢هـ - ٢٠١١م): ٢٥٣.

الغرض الذي سينتقل إليه له مزيد اتصال بما قبله، وأن المعنى: دع قولهم (هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ) [الاحقاف: ٧] واستمع لما هو أعجب وهو قولهم (افتراه) أي: افترى نسبته إلى الله ولم يرد به السحر"(١).

وقد آثر النظم القرآني التعبير بـ(إن) التي تستعمل في الشرط المشكوك في نفيه أو إثباته –غالبًا– في قوله: "قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا" وقد دخلت على المقطوع بنفيه؛ للإشارة إلى أن لديهم من الأدلة الواضحة والبراهين الساطعة ما يدل على أن هذا القرآن هو كلام الله –عز وجل– وليس من كلام البشر، فالمقام مشتمل على دلائل يقلع الشرط من أصله، ولا يمنع أن يكون مجيء (إن) هنا من باب المساهلة ومجاراة الخصم الذي ادَّعَى أن محمدًا –صلى الله عليه وسلم– افتراه، وجواب شرط إن محذوف دل عليه قوله: "فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا"، والتقدير: إن افتريته عاقبني ربي أشد العقاب وأفظعه وأهوله حتى إنكم وأنتم المعارضون لي لا تملكون رد العقاب عني(٢).

وقد بُنيت جملة "هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ" على القطع والاستئناف؛ "مما يفيد أن معناها في الكلام الذي سيقت فيه له خطر وله بال، ووجه ذلك أن الجملة التي قبلها دفعت باطلهم وَدَعْواهم، وأنه عليه والسلام افترى ما أنزله الله عليه، وأسَّسَت هذا الدفع على أصل هو غضب الله الشديد على من يفتري كلامًا ويقول هو من عند الله، وأن من فعل هذا

(١) التحرير والتنوير: ١٢/٢٦.
(٢) ينظر: التحرير والتنوير: ٢٦/ ١٢، وآل حم الجاثية والأحقاف: ٣٥٥، وما بعدها.

يقع عليه من عذاب الله ما لا يطاق دفعه؛ ثم انتقل الكلام من هذا إلى بيان أن ما اتهموه عليه السلام به وقعوا هم في شر منه، وهو الخوض في آيات الله"[1].

ويتناسب مع التعبير بقوله: (تفيضون) التي تدل على التوسع والإطناب في الحديث تقديم المسند إليه على الخبر الفعلي والتعبير بأفعل التفضيل في قوله: "هُوَ أَعْلَمُ..." مما يشير إلى إحاطة علمه -عز وجل- بما يكون منهم في أي وقت وحين؛ فالحق -سبحانه وتعالى- شاهد مطلع على أحوال العباد لا تخفى عليه خافية يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور.

فقوله: "هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ" تهديد وتحذير لهم من استمرارهم فيما يقولونه، فالحق -سبحانه وتعالى- مطلع على ما يكثرون الكلام فيه حول القرآن الكريم من قولهم شعر، وسحر، وافتراه...إلخ، مع علمهم أنه كلام الله -عز وجل- وأكد هذا التهديد بقوله: "كَفَى بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ" فالحق -سبحانه- شهيد يعني شهد ورأى وسمع، وهو الحكم العدل[2]، قال الطاهر بن عاشور قوله: "كَفَى بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ" "بدل اشتمال من جملة (هو أعلم بما تُفِيضُونَ فِيهِ) لأنَّ الإخبار بكونه أَعلم منهم بِكُنْهِ ما يُفيضون فيه يشتمل على معنى تفويض الحكم بينه وبينهم إلى اللَّه تعالى"[3].

---

(1) آل حم الجاثية – الأحقاف دراسة في أسرار البيان: ٣٥٧، وما بعدها.
(٢) ينظر: آل حم الجاثية – الأحقاف دراسة في أسرار البيان: ٣٥٨.
(٣) التحرير والتنوير: ٢٦/ ١٦.

ومع أن الآية الكريمة تحمل في طياتها الغضب إلا أن الحق –جل وعلا– ختم الآية بقوله: "وهو الغفور الرحيم" للترغيب في التوبة والإقلاع عما يخوضون فيه بالباطل، قال العلامة أبو السعود: قوله: "(وهو الغفور الرحيم) وعد بالغفران والرحمة لمن تاب وآمن وإشعار بحلم الله تعالى عنهم مع عظم جرائمهم"[1]، والإمام يقصد بعظم جرائمهم: ما قالوه عن القران إن محمدا افتراه؛ لذا توعدهم بصفة العلم، فقال تعالى: "هو أعلم بما تفيضون فيه"، ثم رغبهم في التوبة باسميه الغفور الرحيم.

[1] إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم: ٧٩/٨.

المبحث الثاني

من بلاغة الإعجاز القرآني في التعبير بمادة: (غيض)

غيض الماء:

قال تعالى في سياق قصة استواء سفينة نوح –عليه السلام– على جبل الجودي: ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [هود: ٤٤].

اتفق العلماء على أن هذه الآية من أعظم شواهد البيان القرآني المعجز، وقد كثر كلامهم في بيان فصاحتها؛ فقد احتوت على أكثر من خمسة وعشرين فنًا بلاغيًا؛ مما جعل علماء البلاغة وغيرهم يستشهدون بها في مؤلفاتهم، فلا تكاد تجد كتابًا بلاغيًا يخلو من هذه الآية، التي أُفرد في إيضاحها وإبراز مواطن الجمال فيها، وعرض الألوان البلاغية التي تضمنتها أبحاثًا خاصة بها وحدها[١]، وسأحاول أن أكتفي بما يتناسب مع موضوع البحث.

يقول الإمام السيوطي في هذه الآية: "(يا أرض ابلعي ماءك...) الآية أمر ونهي، وأخبر ونادى، ونعت وسمّى، وأهلك وأبقى، وأسعد وأشقى،

---

[١] من هذه الأبحاث: التحليل البياني لأبلغ آية في كتاب الله: "وقيل يا أرض ابلعي ماءك..." الآية، بحث للدكتور/ نعمان شعبان علوان، مجلة الجامعة الإسلامية، سلسلة الدراسات الإنسانية، المجلد الثامن عشر، العدد الثاني، ٢٠١٠م.
وبحث: من وجوه البلاغة والإعجاز في آية "وقيل يا أرض ابلعي ماءك" بحث للدكتور/ سلامة داود نشر في كتاب المؤتمر العلمي الدولي الأول بكلية اللغة العربية بإيتاي البارود، ١٤٣٦هـ - ٢٠١٤م.

وقصّ من الأنباء ما لو شُرح ما اندرج في هذه الجملة من بديع اللفظ والبلاغة والإيجاز والبيان لجفّت الأقلام وانحسرت الأيدي"[١].

وذكر الإمام عبد القاهر هذه الآية في كتابه دلائل الإعجاز عند حديثه عن الإعجاز بالنظم؛ إذ قال: "هل تشُكّ إذا فكرت في قوله تعالى: وَقِيلَ يَا أَرْضُ...الآية، فتجلى لك منها الإعجاز، وبهرك الذي ترى وتسمع، أنك لم تجد ما وجدت من المزيّة الظاهرة، والفضيلة القاهرة إلا لأمر يرجع إلى ارتباط هذه الكلم بعضها ببعض، وأنْ لم يعرض لها الحُسن والشَّرف إلا من حيث لاقت الأولى بالثانية، والثالثة بالرابعة، وهكذا..."[٢].

واستشهد ابن أبي الأصبع بهذه الآية عند حديثه عن حسن النسق[٣]، فذكرها وقال في تعليقه عليها: "فأنت ترى إتيان هذه الجمل معطوفًا بعضها على بعض بواو النسق على الترتيب الذي تقتضيه البلاغة"[٤].

---

[١] معترك الأقران في إعجاز القرآن، تأليف/ عبد الرحمن السيوطي، تحقيق/ علي محمد بجاوي (دار الفكر العربي، بيروت) (د.ط.ت): ٢٩٨/١. وينظر: البرهان في علوم القرآن للزركشي: ٣/ ٢٦٦.

[٢] كتاب دلائل الإعجاز، تأليف الشيخ الإمام/ أبي بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني النحوي، المتوفى في سنة ٤٧١ أو ٤٧٤ هـ، قرأه وعلق عليه أبو فهر/ محمود محمد شاكر (مطبعة المدني بمصر، ط الثالثة، ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م):٤٥.

[٣] حسن النسق هو: أن يأتي المتكلم بالكلمات من النثر والأبيات من الشعر متتاليات متلاحمات تلاحمًا سليمًا مستحسنًا لا معيبًا مستهجنًا. بديع القرآن، لابن أبي الإصبع (٥٨٥ – ٦٥٤هـ)، تقديم وتحقيق/ حفني محمد شرف (نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٥٧م): ١٦٤.

[٤] بديع القرآن: ١٦٤.

وقد درس العلامة السكاكي هذه الآية من أربع جهات: من جهة علم البيان، ومن جهة علم المعاني، ومن جهة الفصاحة المعنوية، ومن جهة الفصاحة اللفظية، وأبدع في إظهار مواطن الجمال فيها إبداعًا فائقًا[1].

بعد أن غرق الكافرون، ونجا نوح ومن معه من المؤمنين، وجه الله – تعالى– في هذه الآية أمره إلى الأرض ببلع الماء، والسماء بالإمساك عن المطر، حتى نقص الماء ونضب، وقُضي أمر الله بهلاك قوم نوح، ورست السفينة على جبل الجوديِّ، وقيل هلاكًا للقوم الظالمين.

فالحق –سبحانه وتعالى– بدأ بالأهم؛ إذ كان المراد إطلاق أهل السفينة من سجنها، ولا يتهيأ ذلك إلا بانحسار الماء عن الأرض، فلذلك بدأ بالأرض فأمرها بالابتلاع، ثم أمر سبحانه السماء بالإقلاع بعد أمره الأرض بالابتلاع، ثم أخبر بقوله: "غيض الماء" عندما ذهب ما على الأرض وانقطعت مادة السماء، وذلك يقتضي أن يكون ثالث الجملتين السابقتين، ثم قال تعالى: "وقضي الأمر"؛ أي: هلك من قدر هلاكه، ونجا من اقتضيت نجاته، وهذا كنه الآية وحقيقة المعجزة، ولابد أن تكون معلومة لأهل السفينة، ولا يمكن علمهم بها إلا بعد خروجهم منها وخروجهم منها موقوف على ما تقدم؛ فلذلك اقتضت البلاغة أن تكون هذه الجملة رابعة الجمل، وكذلك استواء السفينة على الجودي؛ أي: استقرارها على المكان الذي استقرت فيه استقرارًا لا حركة معه؛ لتبقى

[1] ينظر: مفتاح العلوم، للإمام أبي يعقوب يوسف بن أبي بكر بن محمد المعروف بالسكاكي، المتوفى: ٦٢٦هـ، تحقيق/ حمدي محمدي قابيل، قدم له وراجعه/ مجدي فتحي السيد (المكتبة التوقيفية، القاهرة): ٣٦٠- ٣٦٤. (د.ط.ت).

آثارها آية لمن يأتي بعد أهلها، وهذا يقتضي أن يكون بعد ما تقدم، وقوله: "وقيل بعدًا للقوم الظالمين"، وهذا دعاء أوجبه الاحتراس ممن يظن أن الهلاك ربما عم من لا يستحق فدعا –سبحانه– على الهالكين ووصفهم بالظلم، احتراسًا من هذا الاحتمال، وذلك يقتضي أن تكون بعد كل ما ذكرنا[١].

وقد آثر التعبير القرآني النداء بـ(يا) دون غيرها من أدوات النداء في قوله تعالى: ﴿وقيل يا أرض ابلعي ماءك وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي﴾؛ "لكونها أكثر في الاستعمال، وأنها دالة على بعد المنادي الذي يستدعيه مقام إظهار العظمة، وإبداء شأن العزة والجبروت"[٢].

وممّا يلفت النظر تقديم النداء على الأمر في قوله تعالى: ﴿يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي﴾؛ فـ"النداء يوقظ النفس، ويلفت الذهن، وينبه المشاعر، فإذا جاء بعده الأمر صادف نفسًا مهيأة يقظة"[٣]؛ فيتمكن الأمر الوارد عقب النداء في نفس المنادى أشد تمكن، والتعبير بأداة النداء (يَا) التي تختص بنداء البعيد؛ لأنها أكثر أدوات النداء استعمالًا، وتدل على "بعد المنادى الذي يستدعيه مقام إظهار العظمة، وإبداء شأن العزة والجبروت"[٤]، فالمقام هنا مقام إظهار عظمة الله سبحانه وتعالى.

---

[١] ينظر: بديع القرآن: ١٦٤، وما بعدها.
[٢] مفتاح العلوم، للسكاكي: ٣٦١.
[٣] علم المعاني دراسة بلاغية ونقدية لمسائل المعاني، د/ بسيوني عبد الفتاح فيود (مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، القاهرة، ط الأولى، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م): ١٢١/٢.
[٤] مفتاح العلوم، للسكاكي: ٣٦١.

ونداء الأرض والسماء استعارة؛ حيث ناداهما المولى -عز وجل- كما ينادى العاقل، وأمرهما كما يؤمر الإنسان بعمل يعمله فينفذه امتثالًا لأمره، فكأن الأرض والسماء "عقلاء مميزون قد عرفوه حق معرفته، وأحاطوا علمًا بوجوب الانقياد لأمره والإذعان لحكمه"[1]؛ فشبههما بمن ينادى ثم حذف المشبه به ودل عليه بياء النداء.

ولا يخفى ما في قوله: (ابلعي، واقلعي) من استعارة تظهر قدرة المولى -عز وجل-؛ فالأرض تبتلع الماء ابتلاعًا تشبيهًا لها بالحيوان الذي يبتلع الطعام، والسماء تستجيب لأمر الله وتقلع، واستعارة البلع الذي هو من فعل الحيوان للنشف؛ دلالة على محو الماء دفعة واحدة، وليس كالنشف المعتاد الكائن على سبيل التدرج[2].

وبين (الأرض، والسماء) طباق، وبين (ابلعي، واقلعي) جناس، وهو من الجناس اللاحق؛ فالباء والقاف بينهما تباعد واضح في المخرج، وقد صور الطباق والجناس المعنى وأظهره في استجابة كل من في الأرض والسماء لنداء المولى جل وعلا.

وبالتأمل في هذا القول المبارك: ﴿وقيل يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي﴾ يتضح أن الحق -سبحانه وتعالى- ذكر الماء مع الأرض، فقال: "وقيل يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ"، ولم يذكره مع السماء، فقال: "وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي"، ولم يقل: يا سماء اقلعي عن سحّ ماءك؛ والسر في ذلك أن

---

[1] دلائل الإعجاز: ٤٥.

[2] ينظر: مفتاح العلوم، للسكاكي: ٣٦١. والإيضاح في علوم البلاغة، تأليف/ جلال الدين أبو عبدالله محمد ابن سعد الدين بن عمر القزويني (دار إحياء العلوم، بيروت، ط الرابعة، ١٩٩٨م): ٣١٢. وفتح القدير للشوكاني: ٦٥٩.

الأرض هي مصدر الماء، فالماء الذي في السماء إنما هو ماء الأرض الذي يتبخر بفعل الحرارة؛ لذا فالحق جلّ وعلا أضاف الماء إلى الأرض، فقال: "يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ"، ولم يقل: ابلعي الماء، فالأرض خُلقت وفيها ماؤها، ولذا جاء تقديم بلع الأرض على اقلاع السماء، فالطوفان قد حدث بارتفاع حجم الماء على الأرض، فكان الأنسب توجيه الخطاب إلى الأرض أولًا ببلع ما عليها من ماء، ثم أمر السماء بالإقلاع، فانقطاع ماء السماء لا يعني توقف الطوفان، بل لا بد للأرض أن تبتلع ما عليها من ماء.

وحذف الفاعل (المسند إليه) في قوله: (وقيل، وغيض، وقضي) يدل على أن الفعل حاصل على سبيل الحسم والقطع والسرعة؛ فهذه الأحداث التي تمت صادرة من المولى –جل وعلا–، ثم إن فيها اختصارًا للكلام، وفيه دليل على قدرة الآمر، وتفرده بالاقتدار على ذلك[1]، يقول شيخنا الأستاذ الدكتور/ محمد أبو موسى "حذف المسند إليه الحقيقي في قوله: (وقيل يا أرض) يشير إلى قوة ظهوره، وأن ذلك الفعل الهائل أعني مخاطبته الأرض وتوجيه الأمر المستعلي إليها لا يكون إلا من الذي خلقها فسواها وكذلك السماء، وحذف الفاعل في قوله: وغيض الماء؛ للإشارة إلى الإجابة السريعة، فما أن أمرت الأرض بأن تبلع والسماء بأن

[1] ينظر: تفسير الكشاف، للزمخشري: ٤٨٥.

تقلع إلا وقد غيض الماء، وكأن قوة هائلة مجهولة اختطفته وابتلعته فذهب معها"[١].

وفي قوله تعالى: "وغيض الماء" إيجاز؛ فهي جملة وجيزة تحمل في طياتها أشياء كثيرة؛ فالماء لا يغيض حتى يقلع مطر السماء، وتبلع الأرض ما يخرج منها من عيون الماء، وهذا ما يعرف في علم البديع بالإشارة[٢]؛ "فإنه سبحانه أشار بهاتين اللفظتين إلى انقطاع مادة الماء من مطر السماء ونبع الأرض، وذهاب الماء الذي كان حاصلًا على وجه الأرض قبل الإخبار؛ إذ لو لم يكن ذلك لما غاض الماء"[٣].

ومجيء الفعل (غيض) على صيغة (فُعِلَ) يدل على أنه لم يغض إلا بأمر آمر وقُدرة قادر[٤]، وقد آثر التعبير القرآني كلمة (غِيضَ) على (غيّض) المشدد لكونه أخصر[٥]، وهذه الجملة: (وغِيضَ الماء) تعليل للاستواء؛ فما كان للسفينة أن تستقر على الجودي إلا بعد أن يغيض الماء وتفرغ الأرض منه.

---

[١] خصائص التراكيب دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني، د/ محمد محمد أبو موسى (مكتبة وهبة، ط الثامنة، ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م): ٢١٢، وما بعدها.

[٢] الإشارة: عبارة عن إيجاز في العبارة، مع كثرة المعنى، كأنه يشير إليه إشارة، ولم تتناوله العبارة. الوسيلة الأدبية إلى العلوم العربية، تأليف/ حسين المرصفي، حققه وقدم له الدكتور/ عبد العزيز الدسوقي (الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩١م): ٢/ ١٩٨.

[٣] تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن، لابن أبي الإصبع المصري (٥٨٥ – ٦٥٤هـ) تقديم وتحقيق الدكتور/ حفني محمد شرف (المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، ١٤٣٣هـ - ٢٠١٢م): ٢٠٢.

[٤] ينظر: دلائل الإعجاز: ٤٦.

[٥] ينظر: مفتاح العلوم للسكاكي: ٣٦٢.

ولا يخفى ما في قوله تعالى: ﴿يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وغيض الماء﴾ من تقسيم؛ حيث استوفى أقسام أحوال الماء حالة نقصه؛ فلولا ابتلاع الأرض للماء، وإقلاع السماء عن المطر لما غاض الماء.

وآثر المولى -عز وجل- الاستواء على غيره في قوله تعالى: "واستوت على الجودي"، فـ"لم يقل: رست أو استقرت؛ لأن الاستواء يدل على معنى لا يدل عليه لفظ من نظيريه المذكورين؛ لأن الاستواء يدل على الاستقرار، أو الرسو المطمئن مع اعتدال الوضع، أما الرسو والاستقرار فقد يكونان على غير وضع الاعتدال، كأن ترسو السفينة أو تستقر وهي منكسة مثلًا على الشاطئ، والاستقرار المعتدل الوضع هو المعنى المطلوب في جانب نجاة المؤمنين من الهلاك وسلامتهم من الطوفان"[1].

وفي قوله تعالى: "وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ" احتراس؛ فالحق لما أخبر بهلاك من هلك بالطوفان أعقبه بالدعاء على الهالكين، ووصفهم بالظلم ليعلم أن جميع من هلك كان مستحقًا للعذاب مستأهلًا له احتراسًا من ضعيف يتوهم أن الهلاك بعمومه قد شمل من لا يستحق العذاب، فلما دعا على الهالكين علم أن كل من هلك كان مستحقًا للهلاك؛ لأنه ثبت بالبرهان أنه عادل فلا يدعو إلا على من يستحق الدعاء، ووصفهم بعد الدعاء عليهم بالظلم، فإن لم يكونوا ظالمين فقد دخل خبره الخلف، وخبره

[1] خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية، دكتور/ عبد العظيم إبراهيم محمد المطعني (مكتبة وهبة، القاهرة، ط الأولى، ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م): ١/ ٢٦١.

منزه عن ذلك، فوقع هذا الدعاء وهذا الوصف احتراسًا من ذلك الذي قد توهمه[1]، كما أن ختام الآية بقوله: "وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ" "فيه تعريض بأن سالكي مسالكهم في الظلم والتكذيب يستحقون مثل هذا الإهلاك والدعاء عليهم"[2].

وفي ختم الآية بقوله: "وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ" رد للعجز على الصدر؛ فالقائل هو الله سبحانه، ولكنه جاء بالمبني للمجهول؛ ليناسب صدر الآية: "وقيل يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ".

غيض الأرحام:

قال تعالى في سياق بيان كمال علمه وقدرته: ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرعد: ٨].

يخبر الله -سبحانه وتعالى- في هذه الآية المباركة عن تمام علمه، فلا تخفى عليه خافية، فيعلم -جلا جلاله- ما تحمله كل أنثى، وما يحصل في الأرحام لكل الإناث، فسبحانه عالم بالشيء حال كونه وتنفيذه، وخلقه وتصنيعه، ويعلم تعالى كل شيء، وكل شيء عنده بمقدار، لا يزيد ولا ينقص[3].

---

(1) ينظر: إعراب القرآن وبيانه، تأليف الأستاذ/ محيى الدين درويش (دار ابن كثير للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، ط السابعة، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م): ٤٣٣/٣. وينظر: بديع القرآن: ٩٣، وما بعدها.

(2) تفسير روح البيان: ٤/ ١٣٧، وينظر: مفتاح العلوم ، للسكاكي: ٣٦١.

(3) ينظر: تفسير البحر المحيط: ٥/ ٣٦١. ومختصر تفسير ابن كثير: ٢/ ٢٧١. والأساس في التفسير، تأليف/ سعيد حوّى (المتوفى ١٤٠٩هـ) (دار السلام – القاهرة، ط السادسة، ١٤٢٤هـ): ٥/ ٢٧٣٤.

أول ما يلحظ في هذه الآية الكريمة أن المولى –عز وجل– بدأها بقوله: "اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى" وهو معنى مجمل؛ فالحق –سبحانه– يعلم ما تحمله الحوامل من كل الإناث، سواء كانت تحمل ذكرا أو أنثى، تماما أو خداجا، حسنا أو قبيحا، طويلا أو قصيرا إلى غير ذلك، ثم أتى بعده معنى خاص "وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ" وقد خص –سبحانه– غيض الأرحام وزيادتها بالذكر مع دخولها في عموم علمه؛ لبيان قدرته –عز وجل– في التحكم في جميع الأشياء حتى الجنين في رحم أمه، ثم أتى معنى مجمل "وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ" فيُفصح الحق –سبحانه– عن عظيم قدرته، وواسع علمه المحيط بكل شيء، فليس ما قد يتخلق في الرحم من شتى المخلوقات، وما قد يعتريه من غيض أو فيض...إلخ مظهرًا لمصادفة أو اضطراب؛ بل كل ذلك إنما يتم وفق نظام شامل دقيق[1].

وجاء المسند إليه لفظ الجلالة معرفا بالعلمية ومقدمًا على الفعل (يعلم) في قوله تعالى: "الله يعلم" تمكينًا لقدرة الله، وتمامًا لعلمه، أفاده ما في العبارة من قصر وتخصيص أستفيد من الجملة الاسمية، فالله – تعالى– هو المنفرد بعلم ما في الأرحام على وجه التحقيق، أذكر أم أنثى، أوحيد أم توأم؟ وهو المنفرد وحده بعلم ما يقع في الأرحام من زيادة أو نقص، وسلامة أو آفة، وتعجيل أو تأجيل...إلخ، والتعبير بلفظ الجلالة

[1] ينظر: النظم القرآني في سورة الرعد، د/ محمد بن سعد الدبل (الرياض، ط الثانية، ١٤٣١هـ - ٢٠١٠م): ٢٤٢، وما بعدها.

أعون على ترسيخ ذلك في ذهن السامع، ويتناغم مع ذلك التعبير بلفظ العموم والشمول (كل) وتنكير (أنثى) في قوله: (كل أنثى) مما يشير إلى إحاطته -سبحانه وتعالى- بما تحمله كل أنثى في هذا الكون الواسع العريض، فلا تخرج أنثى من هذا الحكم، فلا أحد يعلم ما في الأرحام على وجه التفصيل إلا الله -جل وعلا-؛ "فعن ابن عمر رضي اللَّه عنهما، عن النَّبيِّ -صلَّى الله عليهِ وسلَّم- قال: مفاتيح الغيب خمسٌ، لا يعلمها إلَّا اللَّه: لا يعلم ما تغيضُ الأرحامُ إلَّا اللَّه، ولا يعلم ما في غدٍ إلَّا اللَّه، ولا يعلم متى يأتي المطر أحدٌ إلَّا اللَّه، ولا تدري نفسٌ بأيِّ أرضٍ تموت إلَّا اللَّه، ولا يعلم متى تقوم السَّاعة إلَّا اللَّه"(١).

وفي قوله: "وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ" أسند الفعل إلى الأرحام وهو لما فيها، أي الجنين؛ فالأرحام لا تغيض ولا تزداد، وإنما الذي يطلق عليه هذا الوصف هو الجنين الذي بداخل الرحم، وهو مكانه، فإسناد الغيوض والزيادة إلى الأرحام مجازًا عقليًا، وعلاقته المكانية؛ إذ الفاعل حقيقة هو الله -تعالى-، والمقصد من اختصاص الأرحام بالذكر هنا على ما فهمت -والله أعلم بمراده- إظهار قدرة الله وتدبر صنعته في خلقه؛ فالجنين ينمو في رحم صغير داخل بطن أمه، ويمر بمراحل نمو مختلفة تبدأ عند تلقيح البويضة...إلخ، وكل بقدر معين لا يجاوز ولا ينقص عنه.

(١) الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه = صحيح البخاري، لمحمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، (دار طوق النجاة مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي، ط الأولى، ١٤٢٢هـ): ٩/ ١١٦.

وفي قوله: "وَما تَغِيضُ الْأَرْحامُ وَما تَزْدادُ" إيجاز قصر؛ فالله يعلم كل ما ينقصه الرحم أو يزيده في جثة المخلوق أو في مدة حمله له، وهيئة جسده...إلخ[1]، وهو معنى واسع دلّت عليه الآية كما ترى بجملة صغيرة ذات دلالة تصويرية معينة.

وبالتأمل في قوله: "تغيض" يتضح أنه أوفى في أداء المعنى من التعبير بغيره؛ فلو قيل في غير القرآن (تنقص) لظهر أن تغيض آكد في أداء المعنى؛ فخِلقة الجنين في الرحم متوارية ممعنة في الخفاء عن الأنظار، لا يعلم أحد ما يعتريها من تقلبات إلا الله الخالق؛ لذا فلفظة تغيض أنسب في أداء المعنى، وكذلك التعبير بـ(يزداد)، فليس هناك لفظ أليق منها بمكانها، فلو قيل (تنمو) بدلًا منها؛ لظهر أن تزداد أليق في أداء المعنى؛ لأن التأمل قد يلمس من وراء مدة الجنين بعد طولها ما يعينه على رعاية الحمل، والتلطف في الإشراف على الجنين وعلى أمه، حتى يزداد سلامة كلما ازداد خلقه[2]، ولا يخفى ما بين قوله: (تغيض، وتزداد) من طباق أظهر قدرة المولى –عز وجل– وانفراده بعدد الولد، وهيئته، ومدة ولادته...إلخ.

و(ما) في قوله تعالى: "مَا تَحْمِلُ"، "وَمَا تَغِيضُ"، "وَمَا تَزْدَادُ" إما موصولة، وإما مصدرية؛ فإن كانت موصولة فالمعنى عام، أي الله وحده هو الذى يعلم ما تحمله كل أنثى من الولد أهو ذكرٌ، أم أنثى، أم ناقصٌ،

---

[1] ينظر: تفسير الكشاف، الزمخشري: ٥٣٥.
[2] ينظر: النظم القرآني في سورة الرعد: ٩٣.

وحسنٌ، أم قبيحٌ، وطويلٌ، أم قصيرٌ؟ ومن تغذيته ومن تقلبه في أنواع الخلق وما تغيض الأرحام وما تزداد وغير ذلك من الأحوال، وإن كانت مصدرية، فتفيد العموم –أيضًا– فالمعنى أنَّه –تعالى– يعلمُ حمل كل شيء، ويعلم غيض الأرحام وازديادها لا يخفى عليه شيء من ذلك، ومن أوقاته وأحواله[1]؛ فالتعبير بصيغ المضارع التي تفيد التجدد والحدوث المستمر (يعلم، وتحمل، وتغيض، وتزداد) يشير إلى دوام العلم وبقاءه وتعلقه بكل جديد من الحمل في كل مرة لأي أنثى في كل زمان ومكان.

وختم المولى –عز وجل– الآية الكريمة بقوله: "وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ"؛ فسبحانه وتعالى يقدر الأمور بحكمته، وعلمه، وإرادته، وهو في ذاته دليل على وجود الله تعالى وقدرته.

[1] ينظر: تفسير الكشاف: ٥٣٥.

الخاتمة

نحمد الله –سبحانه وتعالى– ونشكره على ما وفق وأعان، والصلاة والسلام على النبي العدنان أفضل الخلق، وهادي البشر إلى الدين القويم، وبعد:

فهذا غيض من فيض، مما فتح الله به علينا من النظر في آيات مادتي: (الفيض، والغيض)، ونجمل أهم ما أمكن التوصل إليه فيما يأتي:

– القرآن الكريم كتاب الله الخالد، ومعجزة الإسلام الباقية إلى أن تقوم الساعة، فهو بحر زاخر، عطاؤه يتجدد، وأسراره لا تنفد، وعجائبه لا تنقضي، وكنوزه لا تنتهي.

– وجود فروق دلالية للّفظة القرآنية من خلال السياق القرآني يمكن للباحث المتأمل في ألفاظ القرآن الكريم الوصول إليها متى بذل جهده في ذلك، وأسعفه التوفيق الإلهي في قصده ومسعاه، فالكلمة في القرآن الكريم لها دلالتها الخاصة، فلا تأول كلمة بمعنى الأخرى، فلكل لفظ خصائصه ودلالته الخاصة به، فالنظم القرآني لا يختار الألفاظ جزافًا، وإنما وفقًا لمقتضى الحال، وما يستوجبه مقصد الآية.

– ذكر الحق –سبحانه وتعالى– مادتي: (الفيض، والغيض) في مواقع محددة في القرآن الكريم، وقد ارتبط كل لفظ بسياقه ومقامه ارتباطًا عجيبًا، وقد تعاونت وسائل التصوير البلاغي على إظهار المقصود منهما.

– وردت مادة: (فيض) في ثماني آيات من آيات الذكر الحكيم؛ فجاءت في سياق بيان أحكام الحج في سورة البقرة، مما دل على كثرة أعداد الحجيج، ومن ثمّ انتشار الإسلام في سائر بقاع الأرض، ووردت في سورة المائدة عند الحديث عن أصحاب القلوب اللينة الذين يبكون خشوعًا عند سماعهم القرآن، وقد أبانت في هذا السياق عن شدة تأثرهم واستحواذ الإيمان على قلوبهم، وأبانت في سورة التوبة عن شدة حزن المتخلفين عن الجهاد بعذر، وأظهرت شدة حزنهم على حرمانهم من الجهاد بسبب ضيق اليد، ووردت في سورة الأعراف لبيان حالة أهل النار، وقد أبانت عما يعانونه من عذاب أليم، وجاءت في سورة يونس في سياق اطلاع المولى –عز وجل– على كل شيء، وأفصحت إلى أنه يجب الشروع في العمل بقوة واهتمام وعدم التكاسل، ووردت في سورة النور في سياق الحديث عن حادث الإفك، وأبانت هذه المادة عما تعرض له النبي –صلى الله عليه وسلم– والسيدة عائشة –رضي الله عنها– من أذى بسبب ما أسرفوا الحديث فيه وأشاعوه، وتزيدوا حتى بلغ حدًا لا يحتمل، ووردت في سورة الأحقاف عند الرد على ادعاء الكفار أن الرسول – صلى الله عليه وسلم– قد اختلق القرآن، وقد أبانت على أنهم يكثرون من ادعائهم الباطل حول القرآن الكريم.

– وردت مادة: (غيض) في ءايتين من آيات الذكر الحكيم؛ الأولى في سورة هود في سياق قصة استواء سفينة نوح –عليه السلام– على جبل الجودي، فما كان للسفينة أن تستقر إلا بعد أن يغيض الماء،

والأخرى في سورة الرعد في سياق بيان كمال علم الله -عــز وجــل- وقدرته، وما يحصل في الأرحام من نقص أو زيادة...إلخ.

وصلَّى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.

١- إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، تأليف/ محمد بن محمد العمادي أبو السعود (دار إحياء التراث العربي، بيروت). (د. ط، ت).

٢- أساس البلاغة، للزمخشري، المتوفى: ٥٣٨هـ، تحقيق/ محمد باسل عيون السود (دار الكتب العلمية، ط الأولى، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨).

٣- الأساس في التفسير، تأليف/ سعيد حوّى (المتوفى ١٤٠٩هـ) (دار السلام، القاهرة، ط السادسة، ١٤٢٤هـ).

٤- أسباب النزول، تأليف/ أبي الحسن على بن أحمد الواحدي النيسابوري، ت: ٤٦٨هـ، تخريج وتدقيق/ عصام بن عبد المحسن الحميداني (دار الإصلاح، الدمام، ط الثانية، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م).

٥- إعراب القرآن وبيانه، تأليف الأستاذ/ محيى الدين درويش (دار ابن كثير للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، ط السابعة، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م).

٦- آل حم الجاثية - الأحقاف دراسة في أسرار البيان، دكتور/ محمد محمد أبو موسى (مكتبة وهبة، ط الأولى، ١٤٣٢هـ - ٢٠١١م).

٧- الانتصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال بحاشية الكشاف، للإمام ناصر الدين ابن المنير المالكي (دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط الثالثة، ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م).

٨- الإيضاح في علوم البلاغة، تأليف/ جلال الدين أبو عبد الله محمد بن سعد الدين بن عمر القزويني (دار إحياء العلوم، بيروت، ط الرابعة، ١٩٩٨م).

٩- بدائع الفوائد، تأليف/ الإمام أبي عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن القيم الجوزية (٦٩١ – ٧٥١)، تحقيق/ علي بن محمد العمران (دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع). (د. ط، ت).

١٠- بديع القرآن، لابن أبي الإصبع (٥٨٥ – ٦٥٤هـ)، تقديم وتحقيق/ حفني محمد شرف (نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٥٧م). (د. ط).

١١- البرهان في علوم القرآن، المؤلف/ بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي (المتوفى: ٧٩٤هـ) تحقيق/ محمد أبو الفضل إبراهيم (دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركائه، ط الأولى، ١٣٧٦هـ - ١٩٥٧م).

١٢- بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز في لطائف الكتاب العزيز، تأليف/ مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز ابادي المتوفي سنة ٨١٧هـ، تحقيق الأستاذ/ محمد علي النجار (المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، ط الثالثة، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م)

١٣- البلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها، تأليف وتأمل/ عبد الرحمن حسن حبنكة، (دار القلم، دمشق، ط الأولى، ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م).

١٤- البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري، د/ محمد محمد أبو موسى (دار التضامن، القاهرة، ط الثانية، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م).

١٥- البلاغة بين البيان والبديع، د/ فهد خليل زايد (دار يافا العلمية للنشر، الأردن، ط الأولى، ٢٠٠٩م).

١٦- تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن، لابن أبي الإصبع المصري (٥٨٥ - ٦٥٤هـ) تقديم وتحقيق الدكتور/ حفني محمد شرف (المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، ١٤٣٣هـ - ٢٠١٢م). (د. ط).

١٧- التحرير والتنوير المعروف: بتفسير ابن عاشور (مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، لبنان، ط الأولى، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م).

١٨- التحليل البياني لأبلغ آية في كتاب الله: "وقيل يا أرض ابلعي ماءك..." الآية، بحث للدكتور/ نعمان شعبان علوان، مجلة الجامعة الإسلامية، سلسلة الدراسات الإنسانية، المجلد الثامن عشر، العدد الثاني، ٢٠١٠م.

١٩- تفسير البحر المحيط، لمحمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي (دار الكتب العلمية، لبنان، بيروت، ط الأولى، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م).

٢٠- تفسير البيضاوي المسمى: أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تأليف/ القاضي ناصر الدين أبي سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي ت: ٧٩١هـ، حققه وعلق عليه وخرج أحاديثه

وضبط نصه/ محمد صبحي بن حسن حلاق، والدكتور/ محمود أحمد الأطرش (دار الرشيد، دمشق، ط الأولى، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م).

٢١- تفسير روح البيان، تأليف الإمام إسماعيل حقي بن البروسوي المتوفي سنة ١١٣٧م (در سعادت، مطبعة عثمانية، ١٣٣٠هـ). (د. ط).

٢٢- تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار) لمحمد رشيد بن علي رضا (المتوفى: ١٣٥٤هـ) (الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٠م). (د. ط).

٢٣- تفسير القرآن الكريم، لفضيلة الشيخ العلامة/ محمد بن صالح العثيمين (دار ابن الجوزي، السعودية، ط الأولى، ١٤٢٣هـ).

٢٤- تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، تأليف/ أبي القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي (٤١٧ - ٥٣٨هـ) اعتنى به وخرج أحاديثه وعلق عليه/ خليل مأمون شيحا (دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط الثالثة، ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م).

٢٥- التفسير الوسيط للقرآن الكريم، تأليف/ لجنة من العلماء بإشراف مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر، (مطبعة المصحف الشريف، ط الثالثة، ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م).

٢٦- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، تأليف العلامة الشيخ عبدالرحمن بن ناصر السعدي، تحقيق د/ عبد الرحمن بن مُعلا اللويحق (دار السلام للنشر والتوزيع، ط الثانية، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م).

٢٧- جامع البيان في تأويل القرآن، لمحمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري (المتوفى: ٣١٠هـ) تحقيق/ أحمد محمد شاكر (مؤسسة الرسالة، ط الأولى، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م).

٢٨- الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه = صحيح البخاري، لمحمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي، تحقيق/ محمد زهير بن ناصر الناصر، (دار طوق النجاة مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي، ط الأولى، ١٤٢٢هـ).

٢٩- الجامع لأحكام القرآن، لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، راجعه وعلق عليه/ محمد إبراهيم الحفناوي، وخرج أحاديثه/ محمود حامد عثمان (دار الحديث، ط الثالثة، ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م).

٣٠- حاشية الشهاب (المُسماة عناية القاضي وكفاية الراضي) على البيضاوي (دار صادر، بيروت). (د. ط، ت).

٣١- حاشية محيى الدين شيخ زاده (محمد بن مصلح الدين مصطفى القوجوي الحنفي، المتوفى سنة: ٩٥١هـ) على تفسير القاضي البيضاوي المتوفى سنة: ٦٨٥هـ، ضبطه وصححه وخرج آياته/ محمد عبد القادر شاهين (دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط الأولى، ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م).

٣٢- خصائص التراكيب دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني، د/ محمد محمد أبو موسى (مكتبة وهبة، ط الثامنة، ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م).

٣٣- خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية، دكتور/ عبد العظيم إبراهيم محمد المطعني (مكتبة وهبة، القاهرة، ط الأولى، ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م).

٣٤- درّة التنزيل وغرة التأويل في بيان الآيات المتشابهات في كتاب الله العزيز، الخطيب الاسكافي، برواية ابن أبي الفرج الأردستاني (دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط الرابعة، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م).

٣٥- دلالات التراكيب دراسة بلاغية، دكتور/ محمد محمد موسى (مكتبة وهبة، القاهرة، ط الخامسة، ١٤٣٥هـ - ٢٠١٤م).

٣٦- ديوان امرئ القيس، تحقيق/ محمد أبو الفضل إبراهيم (دار المعارف، ط الخامسة، ١٩٩٠م).

٣٧- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، المؤلف/ محمود الألوسي أبو الفضل (دار إحياء التراث العربي، بيروت). (د. ط، ت).

٣٨- زهرة التفاسير، لمحمد بن أحمد بن مصطفى بن أحمد المعروف بأبي زهرة، (المتوفى: ١٣٩٤هـ) (دار الفكر العربي). (د. ط، ت).

٣٩- سنن الترمذي، لمحمد بن عيسى بن سَوْرة بن موسى بن الضحاك، الترمذي، أبو عيسى (المتوفى: ٢٧٩هـ) تحقيق وتعليق/ محمد فؤاد عبد الباقي (مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، ط الثانية، ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م).

٤٠- الشعر الجاهلي دراسة في منازع الشعراء، د/ محمد محمد أبو موسى (مكتبة وهبة، مصر، ط الثانية، ١٤٣٣هـ - ٢٠١٢م).

٤١- الصحاح، تاج اللغة وصحاح العربية، تأليف/ إسماعيل بن حماد الجوهري، تحقيق/ أحمد عبد الغفور عطار (دار العلم للملايين، ط الرابعة، ١٩٩٠م).

٤٢- صحيح مسلم، للإمام أبي الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري (٢٠٦ - ٢٦١هـ) (ألفا للنشر والتوزيع، ط الأولى، ٢٠١١م - ١٤٣٢هـ).

٤٣- الطراز، للإمام يحيى بن حمزة بن على بن إبراهيم العلوي اليمني، تحقيق د/ عبد الحميد هنداوي (المكتبة العصرية، بيروت، ط الأولى، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م).

٤٤- علم المعاني دراسة بلاغية ونقدية لمسائل المعاني، د/ بسيوني عبد الفتاح فيود (مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، القاهرة، ط الأولى، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م).

٤٥- غرائب القرآن ورغائب الفرقان، تأليف/ نظام الدين الحسن بن محمد بن حسين القمي النيسابوري (دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط الأولى، ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م).

٤٦- فتحُ البيان في مقاصد القرآن، تأليف/ أبو الطيب محمد صديق خان بن حسن بن علي ابن لطف الله الحسيني البخاري القِنَّوجي (المتوفى: ١٣٠٧هـ) عني بطبعهِ وقدّم له وراجعه: خادم العلم عَبد الله

بن إبراهيم الأنصَاري (المكتبة العصريَّة للطباعة والنّشر، صيدا، بيروت، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م). (د. ط).

٤٧- فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، تأليف/ محمد بن علي ابن محمد الشوكاني، اعتنى به وراجع أصوله/ يوسف الغُوش (دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط الرابعة، ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م).

٤٨- القاموس المحيط، للفيروز ابادي (الهيئة العامة المصرية للكتاب، ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م). (د. ط).

٤٩- كتاب العين، لأبي عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي (١٠٠- ١٧٥هـ)، تحقيق الدكتور/ مهدي المخزومي، والدكتور/ إبراهيم السامرائي (دار ومكتبة الهلال). (د. ط، ت).

٥٠- كتاب دلائل الإعجاز، تأليف الشيخ الإمام/ أبي بكر عبد القاهر بن عبدالرحمن بن محمد الجرجاني النحوي، المتوفى في سنة ٤٧١ أو ٤٧٤ هـ، قرأه وعلق عليه أبو فهر/ محمود محمد شاكر (مطبعة المدني بمصر، ط الثالثة، ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م).

٥١- الكليات، معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، لأبي البقاء أيوب بن موسى الحُسيني الكفوي، أعده للطبع ووضع فهارسه د/ عدنان درويش، ومحمد المصري (مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط الثانية، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م).

٥٢- اللباب في علوم الكتاب، تأليف/ أبو حفص عمر بن علي بن عادل الدمشقي الحنبلي (دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط الأولى، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م).

٥٣- لسان العرب للإمام العلامة ابن منظور (٦٣٠ - ٧١١هـ)، تحقيق/ ياسر سليمان أبو شادي، ومجدي فتحي السيد (دار التوفيقية للطباعة). (د. ط، ت).

٥٤- ما وقع في القرآن الكريم من الظاء، لسليمان بن أبي القاسم التميمي السرقوسي، تحقيق الدكتور/ علي حسين البواب (مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ١٤١٩هـ - ٢٠٠٠م). (د. ط).

٥٥- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، لضياء الدين بن الأثير، قدمه وعلق عليه د/ أحمد الحوفي، د/ بدوي طبانة (دار نهضة مصر للطبع والنشر) (د. ط، ت).

٥٦- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لأبي محمد عبد الحق بن عطية الأندلسي المحاربي (ولد سنة ٤٨١ هـ، وتوفي سنة ٥٤١هـ) تحقيق/ عبد السلام عبدالشافي محمد (دار الكتب العلمية، لبنان، ط الأولى، ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م).

٥٧- مختصر تفسير ابن كثير، مختصر لتفسير الإمام الجليل الحافظ عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي المتوفي سنة ٧٧٤هـ، اختصار وتحقيق/ محمد علي الصابوني (دار القرآن الكريم، بيروت، لبنان، ط السابعة، ١٤٠٢هـ - ١٩٨١م).

٥٨- المطول في شرح تلخيص المفتاح، لسعد الدين التفتازاني الهيروي (المكتبة الأزهرية للتراث مصورة عن طبعة أحمد كامل بتركيا). (د. ط. ت).

٥٩- معترك الأقران في إعجاز القرآن، تأليف/ عبد الرحمن السيوطي، تحقيق/ علي محمد بجاوي (دار الفكر العربي، بيروت) (د. ط. ت).

٦٠- معجم اللغة العربية المعاصرة، تأليف د/ أحمد مختار عمر (عالم الكتب، ط الأولى، ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م).

٦١- معجم مقاييس اللغة، لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، تحقيق وضبط/ عبدالسلام محمد هارون، (دار الفكر، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م). (د. ط).

٦٢- مفاتيح الغيب، للإمام العالم العلامة والحبر البحر الفهامة فخر الدين محمد بن عمر التميمي الرازي الشافعي (دار الكتب العلمية، بيروت، ط الأولى، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م).

٦٣- مفتاح العلوم، للإمام أبي يعقوب يوسف بن أبي بكر بن محمد المعروف بالسكاكي، المتوفى: ٦٢٦هـ، تحقيق/ حمدي محمدي قابيل، قدم له وراجعه/ مجدي فتحي السيد (المكتبة التوقيفية، القاهرة) (د. ط، ت).

٦٤- المفردات في غريب القرآن، تأليف/ أبي القاسم الحسين بن محمد، المعروف بـ«الراغب الأصفهاني» (الناشر/ مكتبة نزار مصطفى الباز). (د. ط، ت).

٦٥- من أسرار البيان القرآني، تأليف الدكتور/ فاضل صالح السامرائي (دار ابن كثير، بيروت، ط الثانية، ١٤٤٠هـ - ٢٠١٩م).

٦٦- من أسرار حروف العطف في الذكر الحكيم "الفاء، وثم"، الدكتور/ محمد الأمين الخضري (مكتبة وهبة، القاهرة، ط الثانية، ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٧م).

٦٧- من وجوه البلاغة والإعجاز في آية "وقيل يا أرض ابلعي ماءك" بحث للدكتور/ سلامة داود نشر في كتاب المؤتمر العلمي الدولي الأول بكلية اللغة العربية بإيتاي البارود، ١٤٣٦هـ - ٢٠١٤م.

٦٨- مواهب الرحمن في تفسير القرآن، تأليف/ عبد الكريم محمد المدرس (دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط الأولى، ١٤٣٥هـ - ٢٠١٤م).

٦٩- النظم القرآني في سورة الرعد، د/ محمد بن سعد الدبل (الرياض، ط الثانية، ١٤٣١هـ - ٢٠١٠م).

٧٠- الوسيلة الأدبية إلى العلوم العربية، تأليف/ حسين المرصفي، حققه وقدم له الدكتور/ عبدالعزيز الدسوقي (الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩١م). (د. ط).

Sources and References

- The Holy Quran.

1- Guiding a sound mind to the merits of the Noble Qur'an, authored by / Muhammad bin Muhammad Al-Emadi Abu Al-Saud (House of the Revival of Arab Heritage, Beirut). (D. i, t).

2- The basis of rhetoric, by Al-Zamakhshari, deceased: 538 AH, investigated by / Muhammad Basil Oyoun Al-Soud (Dar Al-Kutub Al-Ilmia, I, 1419 AH - 1998).

3- The Basis of Interpretation, authored by Saeed Hawwa (died 1409 AH) (Dar al-Salaam, Cairo, Sixth Edition, 1424 AH).

4- The Reasons for Going Down, authored by / Abi Al-Hassan Ali bin Ahmed Al-Wahidi Al-Nisaburi, T.: 468 AH, graduation and auditing / Essam bin Abdul Mohsen Al-Hamidani (Dar Al-Islah, Dammam, Second Edition, 1412 AH - 1992 AD).

5- The Expression and Explanation of the Qur'an, authored by Professor Mohi Al-Din Darwish (Dar Ibn Kathir for Printing, Publishing and Distribution, Damascus, 7th Edition, 1420 AH - 1999 AD).

6- Al Ham Al-Jathiya - Al-Ahqaf: A Study in Asrar Al-Bayan, Dr. Muhammad Muhammad Abu Musa (Wahba Library, First Edition, 1432 AH - 2011 AD).

7- Redress for what the Scout included from retiring to the Scout footnote, by Imam Nasir al-Din Ibn al-Munir al-Maliki (Dar al-Maarifa, Beirut, Lebanon, third edition, 1430 AH - 2009 AD).

8- Clarification in the Sciences of Rhetoric, authored by / Jalal Al-Din Abu Abdullah Muhammad bin Saad Al-Din bin Omar Al-Qazwini (Dar Revival of Sciences, Beirut, Fourth Edition, 1998 AD).

9- Badaa'i Al-Fawa'id, written by Imam Abi Abdullah Muhammad bin Abi Bakr bin Ayyub Ibn Al-Qayyim Al-Jawziyya (691-751), investigation by Ali bin Muhammad Al-Omran (Dar Alam Al-Fawa'id for Publishing and Distribution). (D. i, t).

10- Badi' Al-Quran, by Ibn Abi Al-Asba' (585-654 AH), presented and investigated by Hefni Muhammad Sharaf (Nahdat Misr for Printing, Publishing and Distribution, 1957 AD). (Dr. i).

11- The proof in the sciences of the Qur'an, the author / Badr Al-Din Muhammad bin Abdullah bin Bahader Al-Zarkashi (deceased: 794

AH) investigation / Muhammad Abu Al-Fadl Ibrahim (House for the Revival of Arabic Books Issa Al-Babi Al-Halabi and Partners, First Edition, 1376 AH - 1957 AD).

12- Insights of Distinguished Persons in the Ta'if of the Aziz Book in the Ta'if al-Kitab al-Aziz, authored by Majd al-Din Muhammad ibn Yaqoub al-Fayrouzabadi, who died in 817 AH, achieved by Professor Muhammad Ali al-Najjar (Supreme Council for Islamic Affairs, third edition, 1412 AH - 1992 AD)

13- Arabic rhetoric: its foundations, sciences, and arts, authored and contemplative / Abdul Rahman Hassan Habanka, (Dar Al-Qalam, Damascus, I, 1416 AH - 1996 AD).

14- Quranic rhetoric in the interpretation of Al-Zamakhshari, Dr. Muhammad Muhammad Abu Musa (Dar Al-Tadamon, Cairo, Second Edition, 1408 AH - 1988 AD).

15- The Rhetoric between the Statement and the Badi, Dr. Fahd Khalil Zayed (Dar Yafa Scientific Publishing, Jordan, First Edition, 2009 AD).

16- Editing Inking in the Poetry and Prose Industry and Explanation of the Miracle of the Qur'an, by Ibn Abi Al-Asba' Al-Masry (585-654 AH) presented and investigated by Dr. Hefni Muhammad Sharaf (Supreme Council for Islamic Affairs, Cairo, 1433 AH - 2012 AD). (Dr. i).

17- Al-Tahrir and Al-Tanwir known as Tafsir Ibn Ashour (Institution of Arab History, Beirut, Lebanon, First Edition, 1420 AH - 2000 AD).

18- Graphical analysis of the most eloquent verse in the Book of God: "It was said, O land, swallow your water…" Verse, research by Dr. Noman Shaaban Alwan, Journal of the Islamic University, Human Studies Series, Volume Eighteen, Issue Two, 2010 AD

10- Interpretation of the Sea of the Ocean, by Muhammad ibn Yusuf, famous for Abu Hayyan al-Andalusi (Dar al-Kutub al-Ilmiyya, Lebanon, Beirut, I, 1422 AH - 2001 AD).

20- Tafsir al-Baydawi named: The Lights of Revelation and the Secrets of Interpretation, authored by / Judge Nasir al-Din Abi Saeed Abdullah bin Omar bin Muhammad al-Shirazi al-Baydawi, d.: 791 AH, verified and commented on, and his hadiths came out and its text was controlled by / Muhammad Subhi bin Hassan Hallaq, and Dr. /

Mahmoud Ahmed Al-Atrash (Dar Al-Rasheed, Damascus, First Edition, 1421 AH - 2000 AD).

21- Interpretation of the Wise Qur'an (Interpretation of Al-Manar) by Muhammad Rashid bin Ali Reda (deceased: 1354 AH) (The Egyptian General Book Authority, 1990 AD). (Dr. i).

12- Interpretation of the Noble Qur'an, by His Eminence Sheikh Muhammad Bin Saleh Al-Uthaymeen (Dar Ibn Al-Jawzi, Saudi Arabia, First Edition, 1423 AH).

23- Tafsir al-Kashshaf about the facts of the revelation and the eyes of gossip in the face of interpretation, authored by / Abi al-Qasim Jarallah Mahmoud bin Omar al-Zamakhshari al-Khwarizmi (417 - 538 AH) took care of him and took out his hadiths and commented on him / Khalil Mamoun Shiha (Dar al-Maarifa, Beirut, Lebanon, third edition, 1430 AH - 2009 AD).

24- Intermediate Interpretation of the Noble Qur'an, authored by a committee of scholars under the supervision of the Islamic Research Academy in Al-Azhar, (The Holy Qur'an Press, third edition, 1413 AH - 1992 AD).

25 - Interpretation of the spirit of the statement, written by Imam Ismail Haqqi bin Al-Barsawi, who died in the year 1137 AD (Dur Saadat, Ottoman Press, 1330 AH). (Dr. i).

26- Tayseer Al-Karim Al-Rahman in the interpretation of the words of Al-Mannan, authored by the scholar Sheikh Abdul Rahman bin Nasser Al-Saadi, achieved by Dr. Abdul Rahman bin Mualla Al-Luhaiq (Dar Al-Salam for Publishing and Distribution, second edition, 1422 AH - 2002 AD).

27- Jami' al-Bayan fi Interpretation of the Qur'an, by Muhammad ibn Jarir ibn Yazid ibn Kathir ibn Ghalib al-Amali, Abu Jaafar al-Tabari (died: 310 AH) investigation / Ahmed Muhammad Shakir (Al-Risala Foundation, First Edition, 1420 AH - 2000 AD).

28- Al-Masnad Al-Sahih Al-Musnad Al-Musnad Al-Musnad Al-Sahih Al-Sahih Al-Musnad Al-Musnad Al-Sahih Al-Sahih Al-Musnad Al-Musnad Al-Sahih Al-Sahih Al-Sahih Al-Musnad Al-Sahih Al-Musnad Al-Sahih Al-Musnad Al-Sahih Al-Musnad Al-Sahih Al-Musnad Al-Sahih Al-Sunnah Al-Bukhari Sahih Al-Bukhari by Muhammad Bin Ismail Abu Abdullah Al-Bukhari Al-Jaafi

Investigation Muhammad Zuhair Bin Nasser Al-Nasir The first, 1422 AH).

29- The Collector of the Rulings of the Qur'an, by Abu Abdullah Muhammad bin Ahmad Al-Ansari Al-Qurtubi, reviewed and commented on by / Muhammad Ibrahim Al-Hafnawi, and his hadiths came out / Mahmoud Hamid Othman (Dar Al-Hadith, third edition, 1416 AH - 1996 AD).

30- Hashiyat al-Shehab (called Enayat al-Qadi and Kifayat al-Radi) on al-Baydawi (Dar Sader, Beirut). (D. i, t).

31- Hashiyat Muhyi al-Din Sheikh Zadeh (Muhammad ibn Musleh al-Din Mustafa al-Qawjwi al-Hanafi, died in the year: 951 AH) on the interpretation of Judge al-Baidawi, who died in the year: 685 AH, corrected and corrected and came out His verses / Muhammad Abdul Qadir Shaheen (Dar al-Kutub al-Ilmiyya, Beirut, Lebanon, first edition, 1419 AH - 1999 AD).

32- Characteristics of Structures: An Analytical Study of Semantics Issues, Dr. Muhammad Muhammad Abu Musa (Wahba Library, 8th Edition, 1430 AH - 2009 AD).

33- Characteristics of Quranic expression and its rhetorical features, Dr. / Abdel Azim Ibrahim Muhammad Al-Muta'ni (Wahba Library, Cairo, First Edition, 1413 AH - 1992 AD).

34- Durat Al-Tanzil and Surprising Interpretation in the Explanation of Similar Verses in the Book of Allah the Mighty, Al-Khatib Al-Iskafi, according to the narration of Ibn Abi Al-Faraj Al-Urdsani (Dar Al-Afaq Al-Jadeeda, Beirut, 4th edition, 1401 AH - 1981 AD).

35- Semantics of Structures, a rhetorical study, Dr. Muhammad Muhammad Musa (Wahba Library, Cairo, 5th edition, 1435 AH - 2014 AD).

36- Diwan of Imru' al-Qays, investigated by Muhammad Abu al-Fadl Ibrahim (Dar al-Maaref, fifth edition, 1990 AD).

37- The Spirit of Meanings in the Interpretation of the Great Qur'an and the Seven Repetitions, author/ Mahmoud Al-Alusi Abu Al-Fadl (House of Revival of Arab Heritage, Beirut). (D. i, t).

38- Zahrat al-Tafsir, by Muhammad bin Ahmed bin Mustafa bin Ahmed, known as Abu Zahra, (deceased: 1394 AH) (House of Arab Thought). (D. i, t).

39- Sunan Al-Tirmidhi, by Muhammad bin Issa bin Surah bin Musa bin Al-Dahhak, Al-Tirmidhi, Abu Issa (deceased: 279 AH) investigation and commentary / Muhammad Fouad Abdel-Baqi (Mustafa Al-Babi Al-Halabi Library and Press, Egypt, Second Edition, 1395 AH - 1975 AD).

40- Pre-Islamic Poetry: A Study in the Disputes of Poets, Dr. Muhammad Muhammad Abu Musa (Wahba Library, Egypt, second edition, 1433 AH - 2012 AD).

41- Al-Sahah, Taj Al-Lughah wa Sihah Al-Arabiya, authored by Ismail bin Hammad Al-Jawhari, investigated by Ahmed Abdel Ghafour Attar (Dar Al-Ilm for Millions, Fourth Edition, 1990 AD).

42- Sahih Muslim, by Imam Abu Al-Hussain Muslim bin Al-Hajjaj Al-Qushayri Al-Nisaburi (206-261 AH) (Alpha for Publishing and Distribution, First Edition, 2011 AD - 1432 AH).

43- Al-Tirrat, by Imam Yahya bin Hamza bin Ali bin Ibrahim Al-Alawi Al-Yamani, investigated by Dr. Abdul Hamid Hindawi (Al-Masabaa Al-Asriyya, Beirut, First Edition, 1423 A.H. - 2002 A.D.).

44- Semantics: A rhetorical and critical study of meanings issues, Dr. Bassiouni Abdel Fattah Fayoud (Al-Mukhtar Institution for Publishing and Distribution, Cairo, First Edition, 1419 AH - 1998 AD).

45- The Oddities of the Qur'an and the Desires of the Furqan, authored by Nizam Al-Din Al-Hassan bin Muhammad bin Hussein Al-Qummi Al-Nisaburi (Dar Al-Kutub Al-Ilmiyya, Beirut, Lebanon, I, 1416 AH - 1996 AD).

46- Fath al-Bayan fi Maqasid al-Qur'an, authored by / Abu al-Tayyib Muhammad Siddiq Khan bin Hassan bin Ali Ibn Lutf Allah al-Husayni al-Bukhari al-Qanuji (died: 1307 AH) on my authority by copy and presented to him and reviewed by: The servant of knowledge Abdullah bin Ibrahim al-Ansari (Al-Asriyya Library for Printing and Publishing, Sidon Beirut, 1412 AH - 1992 AD). (Dr. i).

47- Fath al-Qadeer combining the art of the novel and the know-how from the science of interpretation, authored by / Muhammad bin Ali bin Muhammad al-Shawkani, took care of it and reviewed its origins / Youssef Al-Ghosh (Dar Al-Maarifa, Beirut, Lebanon, fourth edition, 1428 AH - 2007 AD).

48- The Ocean Dictionary, by Al-Fayrouz Abadi (Egyptian General Book Organization, 1398 AH - 1978 AD). (Dr. i).

49- The Book of the Eye, by Abu Abd al-Rahman al-Khalil ibn Ahmad ibn Amr ibn Tamim al-Farahidi (100-175 AH), investigated by Dr. Mahdi al-Makhzoumi, and Dr. Ibrahim al-Samarrai (Al-Hilal House and Library). (D. i, t).

50- The Book of Signs of Miracles, written by Sheikh Imam / Abi Bakr Abdul-Qaher bin Abdul Rahman bin Muhammad Al-Jurjani Al-Nahwi, who died in the year 471 or 474 AH, read and commented by Abu Fahr / Mahmoud Muhammad Shaker (Al-Madani Press in Egypt, third edition, 1413 AH - 1992 AD).

51- Colleges, A Dictionary of Terms and Linguistic Differences, by Abu Al-Baqa' Ayoub bin Musa Al-Hussaini Al-Kafwi, prepared for printing and indexed by Dr. Adnan Darwish, and Muhammad Al-Masry (Al-Resala Foundation, Beirut, Lebanon, second edition, 1419 AH - 1998 AD).

52- Al-Lubb fi Ulum Al-Kitab, authored by / Abu Hafs Omar bin Ali bin Adel Al-Dimashqi Al-Hanbali (Dar Al-Kutub Al-Ilmiyya, Beirut, Lebanon, First Edition, 1419 AH - 1998 AD).

53- Lisan al-Arab by Imam Ibn Manzur (630-711 AH), investigation by Yasser Suleiman Abu Shadi, and Majdi Fathi al-Sayyid (Dar al-Tawfiqia for printing). (D. i, t).

54- What happened in the Noble Qur'an from Al-Za'a, by Suleiman bin Abi Al-Qasim Al-Tamimi Al-Sarkosi, investigated by Dr. Ali Hussein Al-Bawab (Religious Culture Library, Cairo, 1419 AH - 2000 AD). (Dr. i).

55- The parable in the literature of the writer and poet, by Dia Al-Din Bin Al-Atheer, presented and commented on by Dr. Ahmed Al-Hofi, Dr. Badawi Tabana (Dar Nahdat Misr for Printing and Publishing) (Dr. T, T).

56- The brief editor in the interpretation of the dear book, by Abu Muhammad Abd al-Haq bin Attia al-Andalusi al-Muharbi (born in 481 AH, died in 541 AH) achieved by / Abd al-Salam Abd al-Shafi Muhammad (Dar al-Kutub al-Ilmiyya, Lebanon, First Edition, 1413 AH - 1993 AD).

57- Summary of Ibn Kathir's Tafsir, a summary of the interpretation of the glorified Imam Al-Hafiz Imad Al-Din Abi Al-Fida Ismail bin Katheer Al-Dimashqi, who died in the year 774 A.H.

58- The extended commentary on Takhlees al-Muftah, by Saad al-Din al-Taftazani al-Hairawi (Al-Azhar Heritage Library, illustrated by Ahmed Kamel's edition in Turkey). (Dr. T. T.).

59- The Battle of the Peers in the Miracles of the Qur'an, authored by / Abdul Rahman Al-Suyuti, investigated by / Ali Muhammad Bedjawi (Dar Al-Fikr Al-Arabi, Beirut) (Dr. T. T.).

60- Dictionary of the Contemporary Arabic Language, written by Dr. Ahmed Mukhtar Omar (Alam al-Kutub, I, 1429 AH - 2008 AD).

61- A Dictionary of Language Measures, by Abu Al-Hussein Ahmed bin Faris bin Zakaria, verified and controlled / Abdul Salam Muhammad Haroun, (Dar Al-Fikr, 1399 AH - 1979 AD). (Dr. i).

62- Keys to the Unseen, by the scholar, the scholar, the scholar, the ink, the sea, the understanding, Fakhr Al-Din Muhammad bin Omar Al-Tamimi Al-Razi Al-Shafi'i (Dar Al-Kutub Al-Ilmiyya, Beirut, First Edition, 1421 AH - 2000 AD).

63- Miftah al-Ulum, by Imam Abu Yaqoub Yusuf bin Abi Bakr bin Muhammad, known as Al-Sakaki, deceased: 626 AH, investigated by Hamdi Muhammadi Qabil, presented to him and reviewed by Majdi Fathi al-Sayed (Al-Tawqifiya Library, Cairo) (d. i, c).

64- Vocabulary in the Strange Qur'an, authored by / Abu Al-Qasim Al-Hussein bin Muhammad, known as "Al-Ragheb Al-Isfahani" (publisher / Nizar Mustafa Al-Baz Library). (D. i, t).

65- From the secrets of the Qur'anic statement, written by Dr. Fadel Saleh Al-Samarrai (Dar Ibn Kathir, Beirut, Second Edition, 1440 AH - 2019 AD).

66- One of the secrets of the letters of kindness in the wise Qur'an is "Alfa and Tham" by Dr. Muhammad Al-Amin Al-Khodari (Wahba Library, Cairo, second edition, 1427 AH - 2007 AD).

67- Among the aspects of rhetoric and miraculousness in the verse "It was said, O land, swallow your water" research by Dr. Salama Daoud, published in the book of the First International Scientific Conference, Faculty of Arabic Language, Itai Al-Baroud, 1436 AH - 2014 AD.

68- Talents of the Rahman in the Interpretation of the Qur'an, authored by / Abdul Karim Muhammad Al-Modarres (House of Revival of Arab Heritage, Beirut, Lebanon, First Edition, 1435 AH - 2014 AD).

69- Qur'anic systems in Surat Al-Ra'd, Dr. Muhammad bin Saad Al-Dabal (Riyadh, second edition, 1431 AH - 2010 AD).

70- The Literary Way to Arabic Science, written by Hussein Al-Marsafi, edited and presented by Dr. Abdulaziz Al-Desouki (The Egyptian General Book Authority, 1991). (Dr. i).